روايات مصرية للجيب

قضية لعبة الثعالب

سلسلة المغامرات البوليسية المثيرة للشباب

٣٩

ع × ٢٠

RASHID
WWW.DVD4ARAB.COM

١ ــ ليل (باريس) ..

هطلت الأمطار فى شدَّة ، على العاصمة الفرنسية (باريس) ، فى تلك الليلة ، التى قضاها (عصام كامل) مُسهدًا فى فراشه ، فى ذلك الفندق الباريسىّ الفاخر ، وأفكاره تسبح بعيدًا ، وتسترجع كل ما حدث ، منذ بدأت تلك المغامرة العنيفة ، التى تخالف كل ما مرَّ به فى حياته من قبل .

لقد بدأ الأمر كله بجائزة ..

جائزة أعلنت عنها جريدة (الفيجارو) الفرنسية ، لأفضل تحقيق صحفى بوليسىّ ، فى دول العالم الثالث ..

وفاز بها (عصام) ..

ربحها عن تحقيقاته ، التى تحمل توقيع (ع × ٢) ..

وكانت سعادة (عصام) بالفوز غامرة ، حتى أنه قد انطلق إلى (باريس) ، ليتسلم جائزته ، وهو يطير فرحًا ، حتى لقد كاد يسبق الطائرة ، التى تقلّه إلى هناك ..

وهناك .. فى (باريس) ، كان هناك رجلان ، يخطّطان للربح من وراء ذلك ، فى اتجاه مريب ..

كانا يسعيان لتجنيد (عصام) لحسابهما ، للعمل ضد دولته ووطنه ، كجاسوس ..

وبدأ (ريمون) و (رولان) خُطَّتهما ، لجذب (عصام) إليهما ، اعتمادًا على وكالة أنباء معروفة ، يملكها (رولان روچيه) ..

وبأساليب ثعبانية معقَّدة ، وبروح الذِّئاب ، ودهاء الثعالب ، سارت خُطَّة الرجلين ، كما خطَّطا لها تمامًا ..

وعرض (رولان) على (عصام) العمل لحسابه ، فى وكالة (روچيه) للأنباء ، بمرتب شهرى يفُوق مرتب (عصام) فى عامين كاملين ..

ووضع الثعالب كل العراقيل الممكنة أمام (عصام) ، لدفعه إلى قبول العرض ..

سرقوا جواز سفره ، وأوراقه ، ونقوده ..

تركوه ضائعًا فى (باريس) ..

ثم أنقذوه من كل هذا فجأة ..

كان المطلوب هو أن يغرسوا فى أعماقه شعورًا ، بأنهم الأمل والإنقاذ ، والأمان ..

وكاد (عصام) يقع فى الفخِّ ، لولا أن تنبَّه فجأة إلى عدَّة أخطاء ، وقع فيها الثعلبان ، دون أن ينتبها ..

وهنا اتخذت اللُّعبة مسارًا جديدًا ..

وانتقل (عادل محمود) ، مدير قسم مكافحة التجسُّس ، بمباحث أمن الدولة ، إلى (باريس) ..

وبدأت (لُعبة الثعالب) ..

وقبل (عصام) العمل فى وكالة (روچيه) ، كجزء من اللُّعبة ، وقرَّر (رولان) أن يُخضعه لاختبار ثقة ..

وفوجئ (عصام) بهجوم عنيف على جناحه بالفندق ، وتعرَّض لضغط بدنىّ ونفسىّ عنيف ، ليعترف بأنه يعمل لحساب (رولان) ، إلا أنه رفض أن يعترف فى إصرار ، حتى فقد الوعى ..

وهكذا اجتاز (عصام) اختبار الثقة ، الذى أخضعه له (رولان) ..

واجتاز أيضًا مرحلة جديدة من اللُّعبة ..

لقد انتصر المصريون فى هذه الجولة ..

وحانت لحظة الجولة الثانية فى اللُّعبة ..

(لُعبة الثعالب)(*) ..

* * *

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزء الأوَّل (قضية أخطر العملاء) .. المغامرة رقم (٣٨) .

كانت الأمطار قد توقَّفت عن الهطول ، ولكن الغيوم كانت تملأ السماء ، وتحجب قرص الشمس تمامًا ، عندما وصل (عصام) إلى قصر (رولان روچيه) ، فى الثامنة والنصف من صباح اليوم التالى ، ولقد استقبله هذا الأخير فى ترحاب ، ورفع حاجبيه بدهشة مفتعلة ، وهو يهتف بأسلوب ممجوج :

ــ ياللشيطان !!.. ماذا أصابك يامسيو (عصام) ؟.. هناك عدَّة كَدَمات فى وجهك ، و.....

قاطعه (عصام) فى صرامة :

ــ أعلم ذلك يامسيو (رولان) ، فقد طالعت وجهى فى المرآة ، قبل أن أحضر إلى هنا ، ولم يَرُق لى ما رأيته ، وأظننى سأحصل على مقابل ذلك منك .

هتف (رولان) ، فى دهشة واضحة الافتعال :

منِّى أنا ؟!

أجابه (عصام) فى حزم :

ــ بالتأكيد .

ثم أشار إلى كَدَمات وجهه ، مستطردًا فى حِدَّة :

ــ فأنت المسئول عن كل هذا .

ارتسمت على شفتى (رولان) ضحكة خبيثة ، وهو يقول :

ــ كيف ؟

أجابه (عصام) فى حِدَّة :

ــ لقد هاجمنى بعض الأوغاد أمس ، وحاولوا إجبارى على الاعتراف بأننى أعمل لحسابك ، حتى أنهم قد قتلوا (چان)

سأله (رولان) فى اهتمام :

ــ وهل اعترفت لهم ؟

لوَّح (عصام) بكفِّه ، وهو يهتف فى غضب :

ــ كلَّا بالطبع ، ولست أفهم لماذا ؟

ولوَّح بسبَّابته فى وجه (رولان) ، مستطردًا :

ــ هل لك أن تشرح لى ، لماذا كل هذا القدر من السِّرِّيَّة ؟!.. ألست صاحب وكالة أنباء رسمية ؟

تطلَّع إليه (رولان) لحظة فى صمت ، ثم لم يلبث أن انفجر ضاحكًا بغتة ، على نحو أثار دهشة (عصام) ، قبل أن يُربِّت على كتفه ، قائلًا فى مرح :

ــ أنت كثير التساؤلات يامسيو (عصام) ، ولكننى سأخبرك بكل ماترغب فى معرفته .

وقاده إلى حديقة القصر ، نحو حوض الاستحمام ، وهو يضع يده على كتفه فى مودَّة ، مستطردًا :

ـــ سبق أن أخبرتك ، أن عالم وكالات الأنباء العالمية بالغ الصعوبة والتعقيد ، وأنه أشبه بعالم أجهزة المخابرات ، فالتنافس بين تلك الشبكات ، بعضها وبعض ، شديد القسوة والعُنف ، إذ إن ربح جولة واحدة ، قد يَعْنِى ملايين الدولارات ؛ لذا فكل الوسائل التى تتخيَّلها ، المشروع منها والممنوع ، تستخدم للقضاء على المنافسة ، وتحقيق ربح جديـد ، وحصول على صحفى ناجح مثلك ، يثير جُنُون الشبكات المنافسة ، ويجعلها تبذل أقصى مالديها ؛ لإقصائك عن الطريق .

سأله (عصام) فى حِدَّة :

ـــ لماذا السِّرِّية إذن ، ماداموا يعلمون ؟

ابتسم (رولان) ، وأشعل سيجاره الفاخر ، ونفَثَ دُخانه فى عمق ، وهو يقول فى هدوء :

ـــ لأنهم ليسوا واثقين بعد .

ثم جلس على مقعد وثير ، يواجه حوض السباحة ، وأشار إلى (عصام) بالجلوس على آخر يجاوره ، قبل أن يستطرد :

ـــ إنهم الآن فى مرحلة شكّ ، تدفعهم للقلق والتوتُّر ، وسيعانون تلك المرحلة طويلًا ، حتى يقعوا على مايؤكد لهم أنك تعمل معنا .

غمغم (عصام) فى قلق :

ـــ وعندئذ ؟!

ابتسم (رولان) ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

ـــ لا داعى لأن تعرف ماسيحدث عندئذ .

كانت العبارة أكثر إثارة للخوف ، مما لو كان (رولان) قد أجابه بأنهم سيقتلونه ، إلا أن هذا لم يَفُتّ فى عَضُدِ (عصام) ، الذى عاش اللُّعبة ، وراح يستمتع بكل لحظة فيها حتى النخاع ، حتى وهو يغمغم ، متظاهرًا بالخوف :

ـــ لقد فهمت .

أومأ (رولان) برأسه ، وهو يغمغم :

ـــ كنت أعلم أنك ذكى .

وصمت لحظة ، نفثَ خلالها دُخان سيجاره مرَّة أخرى ، ثم أردف فى هدوء ، وهو يختلس النظر إلى ملامح (عصام) :

ـــ وهذا يستدعى تنظيم وسائل الاتصال بيننا .

كان (عصام) يتوقَّع هذه العبارة ، وينتظرها ، بعد أن شرح له (عادل) كل أبعاد اللُّعبة ـــ تقريبًا ـــ هذا الصباح ، قبل أن يأتى لزيارة (رولان) ؛ لذا فقد حافظ على هدوء ملامحه ، وتظاهر بعدم الفهم ، وهو يقول فى هدوء :

ـــ سأتصل بك يوميًّا ، إذا مالزم الأمر .

أجابه (رولان) فى دهاء :

ـــ لست أقصد موعد الاتصال :

وبكل براءة ، سأله (عصام) :

ـــ ماذا تقصد إذن ؟

برقت عينا (رولان) ، وهو يقول :

ـــ أسلوب الاتصال نفسه .

انطلقت فى أعماق (عصام) ضحكة ساخرة ، كتمتها ملامحه الهادئة ، وهو يقول فى بساطة :

ـــ أظن أن الهاتف هو أبسط وأسرع الوسائل ، فـ (مصر) تتصل الآن بكل شبكات الأقمار الصناعية ، بحيث يمكننى من هاتفى أن أتصل بأى مكان فى العالم ، و.....

لوَّح (رولان) بكفِّه ، وهو يقول :

ـــ خطأ يامسيو (عصام) .. الاتصال بوساطة الهاتف هو أسهل وسيلة لكشف مالديك من معلومات ، فأجهزة مراقبة الهواتف بسيطة ، ومتوافِرَة .

قال (عصام) محتجًّا :

ـــ ومن يفكِّر فى مراقبة هاتفى ؟

أجابه (رولان) فى حزم :

ـــ وكالات الأنباء المنافسة .

لم يستطع (عصام) كبح ضحكته هذه المرَّة ، فتركها تنطلق من أعماقه ، وهو يقول :

ـــ يا إلـهى !.. إنك تبالغ كثيرًا يامسيو (رولان) .. ألا تَرَى معى أنك تُضْفِى قُدرات أسطورية على وكالات الأنباء تلك ؟

هتف (رولان) فى حِدَّة :

ـــ إنها أقوى مما تتصوَّر .

ضحك (عصام) ، وهو يقول :

ـــ إلى حَدِّ مراقبة هاتفى فى موطنى ؟!

عقد (رولان) حاجبيه ، وهو يقول فى حزم :

ـــ وإلى حَدِّ مراقبة فراشك فى منزلك .

تظاهر (عصام) بالانزعاج ، وهو يغمغم :

ـــ يا إلـهى !!

أضاف (رولان) فى حزم :

ـــ إننى أعرف أكثر منك بأضعاف مضاعفة ، فى هـذا الشأن يامسيو (عصام) ، ومن الأفضل لكلينا ، حتى ينتظم العمل هنا ، أن تقلّل من سيل أسئلتك تدريجيًا ، وتستمع إلَىّ ، وتحاول أن تُوَطِّن نفسك على طاعتى دون مناقشة .

كانت مطالب (رولان) من ذلك النوع ، الذى يستفز مشاعر (عصام) فى شدَّة ، إلا أنه ـــ وعلى الرغم من ذلك ـــ قد أجابه فى هدوء واستسلام :

ـــ كما تشاء يامسيو (رولان) .

تنهدَّ (رولان) فى ارتياح ، وهو يقول :

ـــ هذا أفضل كثيرًا .

ثم عادت عيناه تبرقان ، وهو يميل نحو (عصام) ، مستطردًا فى انفعال :

ـــ والآن ستبدأ مرحلة جديدة معنا .. ستتعلَّم أسلوبنا السِّرِّىّ فى المراسلة ..

وتراجع دون أن يخفت بريق عينيه ، مردفًا :

ـــ وبعدها تصبح أخطر عملائنا فى (القاهرة) ..

* * *

٢ ـــ التدريب ..

تألّقت عينا (عادل محمود) ، وهو يهتف فى لهجة ظافرة :

ـــ رائع .. إذن فقد أخبرك (رولان) أنهم سيلقّنونك أسلوب التخاطر السِّرِّىّ هذا المساء !

أومأ (عصام) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـــ نعم .. سألتقِى به فى مكان سرِّىّ ، يلقّننى فيه ذلك الأسلوب .

سأله (عادل) فى اهتمام :

ـــ وأين ذلك المكان السِّرِّىّ ؟

ـــ هزَّ (عصام) كتفيه ، وهو يقول :

ـــ لست أدرى .. إنه لم يخبرنى به ، فقط طلب منِّى أن أنتظر سيارة (بورش) صفراء ، عند ناصية (الشانزليزيه) ، فى تمام الخامسة مساءً .

عقد (عادل) حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ لاشك أنهم سيقودونك إلى مكان سرِّىّ بحقّ .

هتف (عصام) فى توتُّر :

تألّقت عينا (عادل محمود) ، وهو يهتف فى لهجة ظافرة :

ــ رائع .. إذن فقد أخبرك (رولان) أنهم سيلقّنونك أسلوب التخاطر السرّى ..

ــ ولكنكم ستتبعوننى بلا شك .

التفت إليه (عادل) ، وتطلّع إلى ملامحه لحظة ، قبل أن يجيب فى خُفوت :

ــ كلّا بالطبع .

قفز (عصام) فى مكانه ، وهو يهتف فى ذُعر :

ــ ماذا ؟

أشار إليه (عادل) ، هاتفًا :

ــ مهلًا .. من الضرورى ألا نفعل .

صاح (عصام) فى انفعال :

ــ كيف ؟.. أليس من المحتمل أنهم يبتغون قتلى هناك ؟

هزَّ (عادل) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ــ كلّا .. ليس هذا محتملًا ، فلو أنهم يبتغون قتلك ، ما تجشَّموا كل هذا العَناء ، ولاكتفوا بإطلاق النار عليك هنا ، أو دسِّ السُّمّ لك ، دون أن يكشف أمرهم أحد .

عقد (عصام) حاجبيه فى سُخط ، وهو يقول :

ــ يالك من مطمئن !

زفر (عادل) ، واقترب منه ، ليضع يده على كتفــه ، قائلًا :

ـــ اسمع يا (عصام) .. لاتتصوَّر أبدًا أن هؤلاء الثعالب قد أوْلَوْكَ كل ثقتهم ، لمجرَّد أنك قد رفضت الاعتراف بعملك مع (رولان) ، فحتىَ لو وثق بك هذا الوغد كل الثقة ، فسيحتاج رؤساؤه إلى تأكيد لهذه الثقة ، قبل أن يُولُوكَ ثقتهم بدَوْرِهم ، وهذا يَعْنِى أنه من المحتمل أن يكونوا قد وضعوا فريقًا لمراقبتك ، والتأكُّد من أن أحدًا لن يتبعك ، فى طريقك إلى ذلك الوكر السِّرِّىّ ، ولو أننا تبعناك ، فسيكشفون ذلك حتمًا ، إذ إنهم يملكون كل الأوراق ، فى هذا الشأن ، فهم سيحدِّدون خطّ السَّير ، وهم وحدهم يمكنهم إعداد نقاط مراقبة خفيَّة .

غمغم (عصام) فى توتُّر :

ـــ من الضرورى أن أذهب وحدى إذن ؟

أومأ (عادل) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـــ نعم يا (عصام) .. عليك أن تجتاز هذه المرحلة وحدك .

ثم اعتدل مستطردًا فى حزم :

ـــ وبعدها ستجدنا دائمًا إلى جوارك .

والتقَتْ عيناه بعينى (عصام) ، وهو يردف فى قوة :

ـــ دائمًا ..

لم تكد عقارب الساعة تشير إلى تمام الخامسة مساءً ، حتى برزت (البورش) عند ناصية (الشانزليزيه) ، وتوقَّفت أمام (عصام) ، وبرز من نافذتها وجه رجل غليظ الملامح ، أجش الصوت ، قال فى صرامة :

ـــ ماذا تفعل شمس (مصر) فى ليل (باريس) ؟

أجابه (عصام) فى هدوء :

ـــ تذيب الثلوج .

ابتسم الرجل ابتسامة واسعة ، أبرزت أسنانه الصفراء القذرة ، وهو يغمغم :

ـــ هناك أماكن أفضل لذلك .

كانت هذه هى عبارات السِّرّ المتفق عليها ، لذا فدون أن يضيف حرفًا واحدًا ، دار (عصام) حول مقدِّمة السيارة وجلس على مقعدها المجاور للسائق ، الذى انطلق بسيارته على الفور ..

وفى صمت تام ، قطع الرجل شارع (الشانزليزيه) كله ، قبل أن ينحرف يمينًا فى نهايته ، ويغمغم فى خشونة :

ـــ أهناك من يتبعك ؟

أجابه (عصام) فى اقتضاب وثقة :

ـــ كلَّا .

ألقَى الرجل نظرة على مرآة سيارته ، وقال فى غِلظة :

ـــ أنت كاذب .

عقد (عصام) حاجبيه فى غضب ، وهو يقول فى حِدَّة :

ـــ التزم الأدب يا رجل .. لقد قلت لك .....

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـــ فليذهب ماقلته إلى الجحيم .. هناك من يتبعنا .

اتسعت عينا (عصام) فى دهشة ، وهو يهتف :

ـــ ماذا ؟

وفجأة ، زاد الرجل من سرعة سيارته ، وهو يهتف فى غضب :

ـــ لقد خُنتنا .

التفت (عصام) خلفه فى ذُعر ، وكاد قلبه يتوقَّف بين ضلوعه ، عندما وقع بصره على (البيجو) الحمراء ، التى تتبع (البورش) فى إلحاح ، وهتف بالعربية فى توتُّر بالغ :

ـــ ياإلٰهى !!.. من أين أتت هذه السيارة ؟

أدهشه أن أجابه الرجل بالعربية أيضًا :

ـــ أَلَكَ هَذا السؤالُ أم لى ؟

حدَّق (عصام) فى وجه الرجل فى دهشة ، وسمعه يستطرد فى غضب :

ـــ اللَّعنة !!.. ما كان ينبغى لهم أن يثقوا بك .

صاح (عصام) فى حِدَّة :

ـــ اللَّعنة عليك أنت .. لست أدرى من أين أتت هذه السيارة ، وما الذى تنشده من مطاردتنا !.

صرخ الرجل فى غِلظة :

ـــ ادَّخر عباراتك ، فلن تخدعنى .

تنبـهَّ (عصام) فى تـلك اللحظـة إلى أنهم يغـادرون (باريس) ، إلى طريق زراعى وسط الحقول ، فهتف فى توتُّر :

ـــ إلى أين ؟

أجابه الرجل فى خشونة :

ـــ لو أنك تتصوَّر أننى سأقُودهم إلى المخبإ السِّرِّىّ ، فأنت واهِمٌ .

وفجأة ، انحرف بين الحقول ، وأوقف محرِّك سيارتـه ، مستطردًا فى حِدَّة :

ـ فلْنَرَ من منَّا سينتصر ؟!

خفَق قلب (عصام) فى شدَّة ، وهو يحبس أنفاسه ، حتى تجاوزتهم (البيچو) الحمراء ، وقد بدا وكأن أحدًا من ركابها لم ينتبه إليهم ، على الرغم من أن المسافة التى كانت تفصلهما ، لم تكن بالغة الكبر ، إلى الحدِّ الذى يخدع ركاب (البيچو) ، عندما انحرفت (البورش) بين الحقول .

وتنفَّس (عصام) الصُعَدَاء ، عندما ابتعدت (البيچو) الحمراء ، وغمغم فى ارتياح :

ـ ياإلٰهى !!.. ماذا كانوا يريدون ؟

وفجأة ، شَحُب وجهه ، وجحظت عيناه ، عندما رأى فُوَّهة مسدَّس الرجل الغليظ أمام عينيه ، وسمعه يقول فى حِدَّة وخشونة :

ـ فلنؤجِّل إجابة هذا السؤال لما بعد .. بعد أن أقتلك ..

* * *

٣ ـ الثعالب ..

من المعروف أن رجال المخابرات ، فى أيَّة دولة ، يتلقَّوْن تدريبات مكثَّفة ، تؤهِّلهم للقتال على أرفع مستوى ، ضد كل مايواجههم ، وتحت أيَّة ظروف ..

ولقد كان خصم (عصام) رجل مخابرات محترف ..

ولكن ..

من المعروف أيضًا أنه هناك غريزة قوية ، فى أعماق كل مخلوق على وجه البسيطة ، تُعرف باسم (غريزة البقاء) ..

وهذه الغريزة هى التى تدفع ـ حتى الحيوانات الدَّنيَّة ـ للبحث عن طعامها وشرابها ، اتقاءً لخطر الموت ، وهى التى تدفعها للقتال دفاعًا عن حياتها أيضًا ..

وهذه الغريزة أقوى من الاحتراف ..

نعم .. أقوى منه بكثير ..

لقد دفعت (عصام) ، الذى يواجه الموت ، إلى التحرُّك بسرعة مدهشة ، أذهلت خصمه المحترف ، عندما فوجئ به يغوص فجأة إلى أسفل ، ويثنى ركبتيه ، ثم يدفع قدميه فى صدره ، بكل مايملك من قوة ..

وشهق رجل المخابرات المحترف ، وجحظت عيناه فى ألَمٍ وذُهُول ، وهو يدفع باب السيارة بظهره ، ويقفز خارجها ..

وبسرعة عجيبة ، انقضَّ عليه (عصام) ، وكال له لكمة أودعها كل قوته ، وكل رغبته فى البقاء ، فتأوَّه رجل المخابرات فى قوة ، وسقط مسدَّسه ، ودارت به الأرض ..

وهنا اختطف (عصام) المسدَّس ، وقفز واقفًا على قدميه ، وهو يصوِّبه إلى الرجل ، هاتفًا فى توتُّر :

ــ أيرُوق لك أن أطلق النار عليك الآن ؟ لقد أردت أن تقتلنى .. أليس كذلك ؟

هتف الرجل فى حِدَّة :

ــ أنت المسئول عن تلك السيارة ، التى تتبعنا .

صاح (عصام) فى غضب :

ــ اللَّعنة عليك وعلى سيارتك .. لاأحد يتبعنى إلى هنا ، لأنه لاأحد يعلم بقُدُومى إلى هنا .. هل فهمت ذلك المنطق البسيط ؟

ارتجف جسد (عصام) فى قوة ، عندما سمع من خلفه صوتًا هادئًا ، صارمًا ، يقول :

ــ نعم .. لقد فهمت .

استدار (عصام) إلى مصدر الصوت فى قوة وعُنف ، وشَهَرَ مسدَّس رجل المخابرات نحوه ، ثم لم يلبث أن تصلَّب فى مكانه ، وألقَى المسدَّس من يده ، ورفع ذراعيه فوق رأسه مستسلمًا ..

فلقد كان أمامه أربعة رجال ، يصوِّبون إليه مسدَّساتهم فى حزم ..

لقد خسر المعركة ..

وخسر حياته كلها ..

* * *

« لقد ربحت » ..

نطقها أحد الرجال الأربعة ، الذين يصوِّبون مسدَّساتهم نحو (عصام) ، فى هدوء أدهش هذا الأخير ، وجعله يحدِّق فى وجه الرجل ، مغمغمًا :

ــ ماذا ؟

عاد الرجل يكرِّر فى هدوء ، وهو يَخفض مسدَّسه ، ويشير إلى الثلاثة الآخرين ؛ ليحذُوا حَذْوَه :

ــ أقول إنك قد ربحت .

تطلَّع (عصام) إلى وجوههم فى حَيْرَة ، وهو يغمغم :

ـــ ربحت ماذا ؟

ابتسم الرجل ، وهو يقول :

ـــ ربحت هذا الاختبار .

اتسعت عينا (عصام) ، وهو يهتف :

ـــ ياإلٰهى !.. هل تَعْنِى .....؟

قاطعه الرجل مبتسمًا :

ـــ نعم يامسيو (عصام) .. نحن افتعلنا تلك المطاردة ، وافتعل (يائيل) الغضب ومحاولة قتلك ، لنعلم ما إذا كنت قد دفعت أحدًا لتتبعك أم لا ..

ثم اتسعت ابتسامته ، مستطردًا :

ـــ ولقد ربحت .

صمت (عصام) لحظات ، وهو ينقِّل بصره بين وجوههم فى دهشة بالغة ، قبل أن ينفجر ساخطًا :

ـــ عليكم اللَّعنة !! بأىِّ حقّ تتلاعبون بعواطفى ومشاعرى وانفعالاتى هكذا ؟!.. بأىِّ حقّ تعرضوننى لاختبار تِلْوَ الآخر ؟!

غمغم الرجل فى ارتباك :

ـــ معذرة يامسيو (عصام) ، ولكن كان من الضرورى أن نتأكَّد أوَّلًا .

صاح فى غضب :

ـــ لماذا ؟

ثم لوَّح بذراعه ، مستطردًا فى حَنَق :

ـــ فلتذهب وظيفتكم إلى الجحيم .

عقد الرجل حاجبيه ، وهو يقول فى توتُّر :

ـــ لاداعى يامسيو (عصام) .. لقد كان هذا آخر اختبار .

هتف (عصام) فى لهجة ، تجمع مابين السُّخرية والغضب :

ـــ ياللهول !!.. وماذا ينبغى أن أفعل ، بعد تصريحك هذا ؟.. أأصفق جذلًا ، أم أرقص طربًا ؟

صاح الرجل فى حِدَّة :

ـــ لاهذا ولاذاك يامسيو (عصام) .

وانعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يردف :

ـــ فقط ستصحبنا للقاء مسيو (رولان) .. إنه ينتظرك .

* * *

أطلق (رولان) ضحكة عالية ، بعد أن استمع إلى (عصام) ، وقال وهو يربِّت على كتف هذا الأخير فى حرارة :

ـــ لاتغضب هكذا ياعزيزى .. إنه مجرَّد اختبار عادى ، يتعرَّض له كل من يعمل معنا .

حَدَج (ريمون) (عصام) بنظرة طويلة ، من عينيه البارزتين ، قبل أن يضيف فى بُرود :

ـــ ونحن نعوِّض ذلك براتب ضخم .. أليس كذلك ؟

هتف (عصام) فى حَنَق :

ـــ هل تظن أن خمسة آلاف دولار تكفى ، ليمتلئ وجهى بالكَدَمات ، وتحترق أعصابى هكذا ؟

عقد (ريمون) حاجبيه فى شدَّة ، وبدا وكأنه سيلقِى بعبارة عصبيَّة غاضبة ، لولا أن أسرع (رولان) يقول :

ـــ كلًّا بالطبع .. هناك مكافآت إضافية .

وفتح درج مكتبه ، والتقط منه رِزْمة من الأوراق المالية ، ألقَى بها إلى (عصام) ، مستطردًا بابتسامة ماكرة :

ـــ مثل خمسة آلاف دولار مثلًا .

كاد (عصام) يرفض المبلغ ، صائحًا بأن المال لايَعْنِيه ، بقدر مايَعْنِيه كرامته ، لولا أن دَوَّت عبارة (عادل) فى عقله :

ـــ تذكَّر أنه من الضرورى ألا ترفض أيَّة مكافأة مالية ، وأن تنفق ماتتقاضاه منهم فى إسراف ، كرجل محبّ للمال ، فهذا

يجعلك تبدو أفضل فى نظرهم ، فالرجل الذى يهتم بكرامته ، أكثر من اهتمامه بالمال ، لايمكن أن يصبح جاسوسًا أبدًا .

تذكَّر تلك العبارة ، فتناول رزمة الأوراق المالية فى هدوء ، ودسَّها فى جيبه ، قائلًا :

ـــ لابأس .. هذا التعويض يكفِى .

واصطنع الخبث ، وهو يردف فى بُرود :

ـــ فى الوقت الحالى .

ضحك (رولان) ، وهو يقول :

ـــ سيكون هناك المزيد باستمرار .

أما (ريمون) ، فقد ازداد انعقاد حاجبيه الكثَّين ، وهو يغمغم :

ـــ كلما أحسنت العمل بالطبع .

رمقه (عصام) بنظرة باردة ، ثم تجاهله تمامًا ، وهو يلتفت إلى (رولان) ، قائلًا :

ـــ أتعلم أنك رجل داهية بالفعل يامسيو (رولان) ؟.. إننى لم أتوقَّع أبدًا أن يكون ذلك المخبأ السِّرِّى ، الذى تتحدَّث عنه ، هنا ، أسفل قصرك .

ابتسم (رولان) ، وهو يقول :

ـــ إنه نوع من الاحتياط ياعزيزى .

واصطحب (عصام) إلى حجرة جانبية ، ملحقة بحجرة مكتبه ، وهو يقول :

ـــ إن أفضل مكان تخفى فيه أى شىء ثمين ، هو تحت أبصار وأنوف اللصوص .

غمغم (عصام) :

ـــ هذا صحيح .

لم يكن هناك ، داخل تلك الحجرة الصغيرة ، سوى مقعدين ، جلس (رولان) على أحدهما ، ودعا (عصام) للجلوس على الآخر ، على حين أغلق (ريمون) باب الحجرة ، وهو يقف أمامه هادئًا ، فغمغم (عصام) ، وهو يتلفَّت حوله :

ـــ أين أدوات التدريب ؟

ابتسم (رولان) ، وهو يقول فى هدوء :

ـــ إننا نهبط إليها ..

هتف (عصام) فى دهشة :

ـــ نهبط إليها ؟!

أومأ (رولان) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـــ نعم .. ولقد وصلنا .

ثم أشار إلى (ريمون) ، ففتح باب الحجرة الصغيرة..

واتسعت عينا (عصام) فى دهشة ..

لقد اختفت حجرة المكتب ، وحلَّت محلَّها قاعة واسعة ..

قاعة التدريبات الشيطانية ..

* * *

٤ ــ المــرارة ..

لم تكن تلك هى أوَّل لُعبة لـ (عادل محمود) ، مع مخابرات العدُوّ ، عَبْرَ سنوات عمله الطويلة ، إلا أنه بدا ، فى تـلك الليلة ، وهو يقف خلف نافذة حجرته ، متطلِّعًا إلى شوارع (باريس) فى شُرُود ، وكأنها لُعبته الأولى مع الثعالب ، حتى أن زميله (إبراهيم) قد اقترب منه ، مغمغمًا :

ــ ماذا بك ؟.. إننى لم أرَكَ أبدًا متوتِّرًا هكذا ، حتى فى أثناء عملية (موسكو) .

زفر (عادل) فى عمق ، وهو يقول :

ــ لم تكـن حيـاة أعـزّ أصدقـائى فى اللُّعبـة حينـــذاك يا (إبراهيم) .

هزَّ (إبراهيم) كتفيه ، وهو يقول :

ــ وما الفارق ؟.. المفروض أن كل هذا لصالح (مصر) .

أومأ (عادل) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ أعلم ذلك يا (إبراهيم) ، ولكننى لا أستطيع كبـح مخاوفى .

ابتسم (إبراهيم) فى تعاطُف ، وهو يقول :

ــ أتظنُّ أنه يتعرَّض للخطر ؟

مطَّ (عادل) شفتيه ، وهو يقول :

ــ كل مراحل اللُّعبة تحمل فى طيَّاتها الخطر يا (إبراهيم) .

قال (إبراهيم) :

ــ بالتأكيد ، ولكننى أعْنِى أى خطر على حياته .

هزَّ (عادل) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

كلَّا .. ليس فى هذه المرحلة .

وعاد يشرد ببصره لحظات ، قبل أن يردف :

ــ إن كل ماسيحرصون عليه ، فى تلك المرحلة ، هـو إبهاره .. إبهاره حتى النخاع ..

* * *

كان (عادل) على حقٍّ تمامًا هذه المرَّة ..

لقد كان (عصام) ، فى تلك اللحظة ، مبهُورًا حتـى النخاع ..

كان يدير بصره فى أنحاء القاعـة الواسعـة ، المحتشدة بالأجهزة الحديثة ، فى انبهار كامل ..

كان (عادل) على حقّ تمامًا هذه المرّة ..

لقد كان (عصام) ، فى تلك اللحظة ، مبهُورًا حتى النخاع ..

وعلى شفتى (رولان) ، ارتسمت ابتسامة ظافرة ، وهو يدير عينيه بين (عصام) و (ريمون) ، الذى اكتفى بعقد حاجبيه فى توتُّر كعادته ، حتى هتف (عصام) :

ــ ياإلٰهى !.. ماهذا المكان ؟

ابتسم (رولان) ، وهو يجيب فى هدوء :

ــ إنه حجرة تدريب المراسلين الجدُد ياعزيزى .

هتف (عصام) فى انبهار :

ــ حجرة تدريب ؟!

ثم التفت إلى الحجرة التى أتَوْا منها ، مستطردًا :

ــ وهل هبطنا إليها بوساطة تلك ؟

أجابه (رولان) فى هدوء :

ــ نعم ..

ثم عقد ذراعيه أمام صدره ، مستطردًا :

ــ أتعلم ياعزيزى (عصام) .. لقد اقتنعت بأن الاتصال الهاتفى أسرع وأبسط وسائل الاتصال .

ابتسم (عصام) فى سُخرية ، وهو يقول :

ــ وماذا عن المراقبة الهاتفية ؟

برقت عينا (رولان) فى خُبث ، وهو يقول :

ـــ كل شيء يمكن تجاوزه يا عزيزى .

ثم تبادل نظرة غامضة مع (عصام) ، قبل أن يقول :

ـــ هل سمعت عن اختراع يُدعى (الفاكسميلى) يا مسيو (عصام) ؟

أجابه (عصام) فى هدوء :

ـــ بالطبع .. إنه جهاز خاص ، يتمُّ إيصاله بالهاتف ، بحيث يُمكن بوساطته إرسال الصور والخطابات ، عَبْرَ أسلاك الهاتف .

ابتسم (رولان) ، وهو يقول :

ـــ تمامًا .

وعاد يتبادل تلك النظرة الغامضة مع (ريمون) ، قبل أن يستطرد :

ـــ سيكون هذا هو أسلوب اتصالنا السِّرِّىّ .

شعر (عصام) فى أعماقه باستخفاف شديد لتلك الفكرة ، وعجز عن إخفاء استخفافه فى أعماقه ، وهو يقول :

ـــ يا للسخف !!.. هذا لايختلف كثيرًا عن المحادثات الهاتفية يا مسيو (رولان) ، بل إنه أكثر عُرضة للكشف ، وإثارة الشُّبهات .

لم تفارق الابتسامة شفتى (رولان) ، وهو يقول :

ـــ كيف يا مسيو (عصام) ؟

لوَّح (عصام) بكفِّه ، قائلًا :

ـــ أولًا : كيف يمكن تبرير حصول صحفى عادى مثلى ، على جهاز (فاكسميلى) خاص ، حتى لو أعلنَّا صراحةً أننى أعمل لحسابكم ، بخمسة آلاف جنيه شهريًا ؟.. أتعلم كم يبلغ سعر أقل جهاز (فاكسميلى) ؟

أجابه (رولان) فى هدوء :

ـــ مايقرب من عشرة آلاف دولار .. أما عن تبرير حصولك على (الفاكسميلى) ، فهو أمر أبسط مما تتوقَّع ..

وابتسم ابتسامة واسعة ، وهو يستطرد :

ـــ ستتلقَّاه هدية من وكالة (روچيه) للأنباء ، مع كل تكاليف تركيبه ، واشتراكه السنوى فى (مصر) ، بمناسبة فوزك بجائزة (الفيجارو) .

عقد (عصام) حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ فليكُن ، ولكن كيف نتجاوز الرقابة الهاتفية .. إن كل رسالة بواسطة (الفاكسميلى) يُمكن التقاطها ، و.....

قاطعه (رولان) فى هدوء :

ـــ اطمئن ياعزيزى (عصام) .. لن يحدث هذا .

هتف (عصام) فى حَنَق :

ـــ كيف ؟

التقط (رولان) آلة حلاقة كهربائية صغيرة ، وهو يقول :

ـــ بوساطة هذا .

ابتسم (عصام) فى سُخرية ، وهو يلتقط آلة الحلاقة ، قائلًا :

ـــ كيف ؟.. أتظن أنهم لن يلتقطوا الرسالة ، لمجرَّد أننى سأحلق ذقنى كل صباح ، بآلة حلاقة كهربائية .

مطَّ (ريمون) شفتيه ، وازداد انعقاد حاجبيه الكثَّين فى غضب ، وكأنما يكره المرح والدُّعابات ، شأن أى شيطان ، على حين أطلق (رولان) ضحكة مرحة ، قائلًا :

ـــ كلَّا بالطبع .. لاأظنهم سيهتمُّون بمظهرك كثيرًا .

وعاد يلتقط من يده آلة الحلاقة الكهربائية ، مستطردًا :

ـــ صحيح أن هذه الآلة تصلح لحلاقة الذقن على نحو جيِّد ، إلا أنها تصلح أيضًا لأغراض أخرى .

وأشار إلى زِرٍّ صغير ، يختفى فى مهارة ، فى قاع الآلة ، مردفًا :

ـــ بالضغط على هذا الزِّرّ الصغير ، تتحوَّل آلة الحلاقة البريئة المظهر ، إلى جهاز بالغ الخطورة .. هل تعلم كيف يعمل جهاز (الفاكسميلى) ؟.. إنه يحوِّل الخطوط والأضواء إلى ذبذبات خاصة ، تنتقل عَبْرَ أسلاك الهاتف ، ليلتقطها جهاز مشابه ، ويعيدها إلى خطوط وأضواء ، بعملية عكسية .

غمغم (عصام) :

ـــ هذا صحيح .

ابتسم (رولان) ، وهو يقول :

ـــ حسنًا .. عندما تكتب خطابًا لنا ، ستترك سطرًا بين كل سطرين مكتوبين ، وفى هذا السطر ، ستكتب مالديك من معلومات ، بقلم مغناطيسى خاص ، ثم تُوصِّل آلة الحلاقة بجهاز (الفاكسميلى) ، وتضغط ذلك الزِّرّ ، وتُرسل الخطاب .

ولم يتمالك نفسه من إطلاق ضحكة عالية ، قبل أن يُردف :

ـــ ورجال المراقبة الهاتفية يستخدمون جهاز (فاكسميلى) للمراقبة ، ولكن جهازهم لن يحوِى ذلك الجهاز الإضافى الصغير ، مثل جهازك وجهازنا .. ومهمَّة هذا الجهاز الصغير هى أن ينتقِىَ تلك الأسطر ، المكتوبة بالقلم المغناطيسى ، ويرسلها على ذبذبة خاصة ، يستحيل استقبالها ، إلا بوساطة جهاز مشابه .

شعر (عصام) بذُعر حقيقى ، لذلك التقدُّم التكنولوچى المخيف ، وهو يغمغم :

ـــ يا إلـهى !!

عاد (رولان) يُطلق ضحكة أخرى عالية ، قبل أن يتابع :

ـــ وهكذا يستقبل رجال المراقبة رسالة عادية ، ونستقبل نحن رسالة خاصة .. هل فهمت ؟

غمغم (عصام) فى توتُّر :

ـــ فهمت .

ابتسم (رولان) فى ظَفَر ، وقال :

ـــ والآن .. هيَّا لتعلَّم كيفية استخدام القلم المغناطيسى .. إنك ستصبح أخطر عملائنا .. أليس كذلك ؟..

★ ★ ★

لم ينبس (عصام) بحرف واحد ، طَوَال الطريق من قصر (رولان) إلى فندقه ، ولم يحاوِل سائق السيارة أن يقطع صمته لحظة واحدة ..

وفى أعماقه كان (عصام) يشعر بهلع ..

هلع حقيقى ..

كان ما رآه يجعله يرتجف ، ويشفق على وطنه ، الذى يقاتل خُصُومًا بمثل هذا التقدُّم ، وهذه القوة ..

وتساءل فى لوعة :

ـــ كيف يحتمل وطنه هذا الصراع غير المتكافئ يا تُرَى ؟.

وفى أعماق قلبه سالت دموع المرارة ..

سالت فى غزارة ..

★ ★ ★

٥ ــ الثقــة ..

استقبل أفراد قسم الحوادث زميلهم (عصام) ، بعاصفة من الترحاب والتهليل فى (القاهرة) ، والتفُّوا حوله يهنئونه بتسلُّم جائزة (الفيجارو) ، وجائزة وكالة (روچيه) للأنباء ، وهتف أحد زملائه فى مرح :

ــ مرحَى يا (عصام) .. لقد صرت صحفيًا عالميًا ، وتملك اليوم جهاز (فاكسميلى) خاص ، لايملكه القسم كله .

ابتسم (عصام) فى شرود ، وهو يغمغم :

ــ أتظنها مَزِيَّة يا صديقى ؟

هتف زميله :

ــ بالتأكيد .. أيَّة وسيلة اتصال حديثة يملكها المرء ، هى مَزِيَّة مؤكَّدة .

زفر (عصام) فى شُرُود ، وهو يغمغم :

ــ بالطبع .

ثم انفصل عن زملائه ، واتجه إلى مكتبه ، وجلس خلفه ساهمًا ، شاردًا ، مما أغضب بعضًا من رفاقه ، فقال أحدهم مُحْنَقًا :

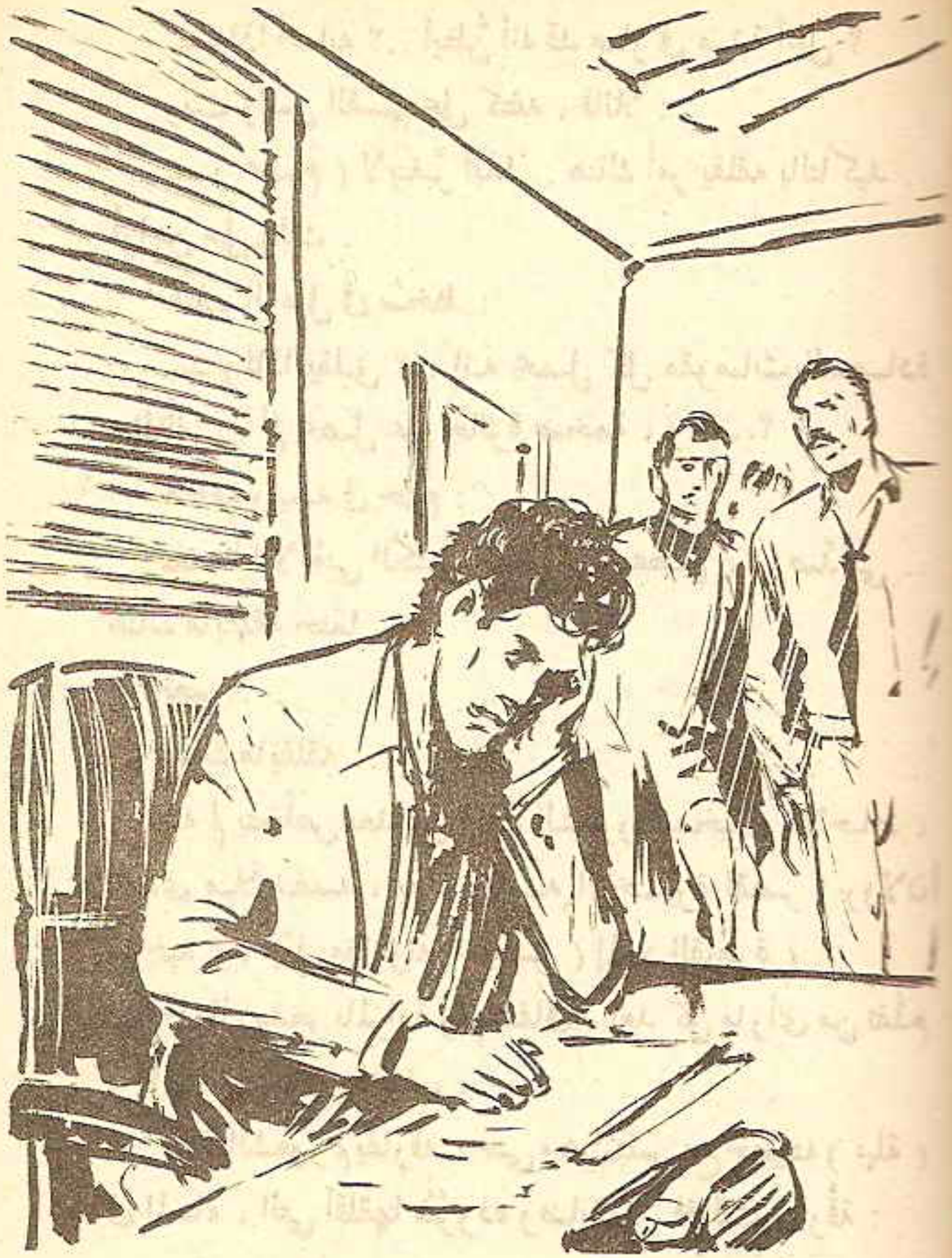

ثم انفصل عن زملائه ، واتجه إلى مكتبه ، وجلس خلفه ساهمًا ، شاردًا ..

ـــ ماذا أصابه ؟.. أيظنُّ أنه قد صار فى مرتبة أعلى ؟

ربَّت رئيس القسم على كتفه ، قائلًا :

ـــ (عصام) لايتغيرَّ أبدًا .. هناك أمر يقلقه بالتأكيد .. أراهن على ذلك .

هتف الزميل فى سُخط :

ـــ ولماذا يقلق ؟.. إنه يحمل كل مقومات السعادة والظَّفَرِ .. ألم يحصل على جائزة ضخمة ، و.....؟

قاطعه رئيسه فى حزم :

ـــ هذا لايَعْنِى الكثير بالنسبة لـ (عصام) .. صدِّقنى .. هناك مايقلقه حتمًا .

نعم ..

هناك مايقلقه ..

إنه لم يتخلَّص بعد من ذلك الشعور السخيف بالإحباط ، الذى ملأ نفسه ، بعد زيارته الأخيرة لقصر (رولان روچيه) ، قُبَيْل مغادرته (باريس) إلى (القاهرة) .

مازال يشعر بالمرارة والإشفاق ، بعد كل مارأى من تقدُّم رجال (الموساد) المخيف ..

وهذ الشعور لم يفارقه ، حتى وهو يجلس مع خطيبته (نهلة) فى المساء ، التى أقلقها شُرُوده وضايقها ، فقالت فى رقَّة :

ـــ (عصام) .. ماذا بك ؟

أدهشها أنه ظل شاردًا ، وكأنما لم يسمعها قَطُّ ، حتى أنها اضطرت إلى رفع صوتها ، وهى تكرِّر فى قلق :

ـــ ماذا بك يا (عصام) ؟

ارتجف جسده ، وكأنما بُوغت بصوتها المرتفع ، وقد عهدها دَوْمًا بالغة الرِّقة والهدوء ، والتفت إليها بنظرة أقرب إلى الذُّعر ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة حائرة مرتبكة ، وهو يغمغم :

ـــ ماذا هناك يا (نهلة) ؟

عقدت حاجبيها ، وهى تقول فى ضيق :

ـــ لقد ألقيت عليك ثوًا نفس السؤال .

سألها فى دهشة :

ـــ أى سؤال ؟

حدَّقت فى وجهه بِحَيْرَة وتساؤل ، قبل أن تهتف فى استنكار :

ـــ ماذا أصابك يا (عصام) ؟.. من الواضح أنك لم تسمع منِّى كلمة واحدة .

تنهدَّ فى عمق ، وأشاح بوجهه ، مغمغمًا :

ـــ معذرة يا (نهلة) .. لقد .....

حاول أن يجد عذرًا مقبولًا ، إلا أن عقله الشارد عجز عن ذلك ، فاكتفى بأن بتر عبارته ، ولاذَّ بالصمت ، وهى تتطلَّع إليه فى حَيْرَة ، قبل أن يرتفع رنين جرس الباب ، فغادرت مكانها إلى جواره ، وهو يغمغم فى أسف :

ـــ كيف يمكننى أن أخبرك يا (نهلة) ؟.. كيف ؟

أما هى ، فلم تكد تفتح الباب ، وتجد (عادل محمود) أمامها ، حتى هتفت فى لهفة :

ـــ خالى ؟!.. حمدًا لله أنك قد جئت .

عقد (عادل) حاجبيه ، وهو يسألها فى قلق :

ـــ ماذا هناك يا (نهلة) ؟

هتفت به ، فى صوت أقرب إلى البكاء :

ـــ (عصام) ياخالى .. لست أدرى ماذا أصابه ؟!.. إنه شارد الذهن للغاية .

ربَّت (عادل) على كتفها ، قائلًا فى هدوء :

ـــ لاعليك يا (نهلة) .. أعدِّى لنا قدحين من الشاى ، وسأحاول أنا انتزاعه من حالة الشُّرود هذه .

ولم يبدُ أى قَدْر من الدهشة ، على وجه (عصام) ، عندما رأى (عادل) أمامه ، بل تطلَّع إليه فى شُرود ، قبل أن يغمغم :

ـــ مرحبًا ياسيادة العقيد .

جلس (عادل) إلى جواره ، وهو يسأله فى هدوء :

ـــ كيف حالك ؟

غمغم (عصام) :

ـــ أظنَّنى بخير حالٍ .. بدنيًا على الأقل .

التفت إليه (عادل) ، وهو يقول فى صرامة :

ـــ ماذا أصابك ؟.. هل تشعر بالخوف ؟.. هل تفكِّر فى التراجع ؟

هزَّ (عصام) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى حزم :

ـــ مطلقًا .

ومضت لحظة صمت ، قبل أن يردف فى خُفوت :

ـــ ولكن .....

اكتفى بتلك الكلمة الاعتراضية ، دون أن يضيف جديدًا ، وكأنما لايجد فى أعماقه أى جديد ، فقال (عادل) ، فى محاولة لحثِّه على المواصلة :

ـــ ولكن ماذا ؟

تردَّد (عصام) لحظات ، قبل أن يهزّ رأسه ، قائلًا :

ـــ كيف يمكننا مقاتلة هؤلاء القوم ؟

عقد (عادل) حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـــ ماذا تقصد ؟

لوَّح (عصام) بكفِّه ، وهو يهتف :

ـــ أقصد كيف يمكننا مجابهتهم ؟.. إنهم يملكون ما لا قِبَلَ لنا به .

هتف (عادل) فى غضب :

ـــ هل نجحوا فى إبهارك ؟

صاح (عصام) :

ـــ بل فى إيقاظى .

جذبه (عادل) من ذراعه فى عُنف ، وهو يقول :

ـــ إيقاظك من ماذا ؟.. أتظنّهم أكثر مناعة من الجميع ؟ لقد جابهناهم أكثر من مرَّة ، وهزمناهم أيضًا أكثر من مرَّة .. صدقنى .. إننا أقوى منهم كثيرًا .

تملَّص (عصام) منه ، وهو يهتف فى ألم :

ـــ إنك لم تَرَ ما رأيته .

هتف (عادل) :

ـــ بل رأيت ما هو أكثر منه .

أراد (عصام) أن يعترض ، وأن يعيد وصف ما رآه ، فى قصر (رولان) ، لولا أن وصلت (نهلة) فى تلك اللحظة ، وهى تحمل قدحَيِ الشاى ، فلاذَ هو و (عادل) بالصمت بعض الوقت ، وهما يحتسيان المشروب الساخن ، حتى قال (عادل) فى هدوء :

ـــ ما رأيك أن تأتى لزيارتى فى المكتب غدًا ؟

تطلَّع إليه (عصام) فى حَيْرَة ، قبل أن يغمغم :

ـــ متى ؟

أجابه (عادل) فى هدوء :

ـــ فى الصباح الباكر .. قبل ذهابك إلى المكتب .. فلنقل فى السابعة مثلًا .

ارتشف (عصام) رشفة من الشاى ، قبل أن يغمغم :

ـــ لا بأس .

وبعدها لم يتبادلا كلمة واحدة حول هذا الأمر .. مطلقًا ..

★ ★ ★

كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة تمامًا ، عندما دلف (عصام) إلى مكتب (عادل) ، الذى استقبله بابتسامة واسعة ، وصافحه قائلًا :

ـــ لعلك أكثر هدوءًا اليوم .

تنهَّد (عصام) ، وهو يغمغم :

ـــ إننى لم أنَمْ لحظة واحدة طِيلَة الليل .

نهض (عادل) من خلف مكتبه ، وهو يقول :

ـــ أمازال أمر هؤلاء الأوغاد يُقلقك ؟

أجابه (عصام) :

ـــ بالتأكيد .

ابتسم (عادل) فى هدوء ، وهو يصحبه إلى خارج مكتبه ، قائلًا :

ـــ عجبًا !!.. لقد راجعت ماحدث لك معهم عشرات المرَّات ، فلم أجد فيه مايستحق أو يستوجب القلق .

تطلَّع إليه (عصام) فى دهشة ، قبل أن يقول :

ـــ أتسخر منِّى ؟

قاده (عادل) إلى حجرة كبيرة أنيقة ، وهو يقول مبتسمًا :

ـــ مطلقًا .

وأشار إليه بالجلوس على مقعد وثير ، قبل أن يستطرد :

ـــ فالتليفزيون العادى قد يُبهر من لمْ يَرَه قَطُّ من قبل .

عقد (عصام) حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ ماذا تقصد ؟

ابتسم (عادل) ، وقال :

ـــ أقصد أن وسائل المخابرات ، أو أجهزة مكافحة التجسُّس ، مُبْهِرة دَوْمًا ، لمن لايعمل فى هذا المجال .

ثم نهض من مقعده ، مستطردًا :

ـــ هيَّا .. لقد وصلنا .

هتف (عصام) فى دهشة :

ـــ وصلنا إلى ماذا ؟

اتجه (عادل) فى هدوء نحو الباب ، وفتحه ، وهو يقول مبتسمًا :

ـــ إلى قاعة التدريبات الخاصة بنا .

اتسعت عينا (عصام) فى ذُهُول ، وهو يتطلَّع إلى المشهد أمامه ..

كان الممرّ ، الذى قاده إلى ذلك الباب ، قد اختفى تمامًا ، وحلّت محله قاعة رهيبة ، بالغة الاتساع ، انتشر داخلها عشرات الرجال ، بعضهم يزاول تدريبات الرماية ، والبعض الآخر يعمل أمام عدد من أحدث أجهزة الكمبيوتر ، ومجموعة تفحص سيارة أنيقة ، وأخرى تعمل فى مكان مغلق بجدران زجاجية ، أشبه بمعمل كيميائى متطوّر .

وبكل مايملأ قلبه من انبهار ودهشة ، هتف (عصام) :

ـــ ماهذا ؟

أجابه (عادل) فى هدوء :

ـــ قاعة التدريبات الخاصة بنا يا صديقى .

هتف (عصام) :

ـــ ولكنها أكثر ضخامة ورَوْعة من .....

قاطعه (عادل) ، وهو يكمل قائلًا :

ـــ من تلك التى توجد أسفل قصر (رولان) .. أليس كذلك ؟

أومأ (عصام) برأسه إيجابًا ، متمتمًا :

ـــ بلَى .

وضع (عادل) يده على كتفه ، قائلًا :

ـــ أرأيت كيف أن الأمر أبسط مما تتصوَّر بكثير ؟.. هذه الحجرة مجرَّد مصعد عادى ، ومن السهل صنع المصعد فى أيّة صورة ، فالمهم هو تلك الآلات التى تحرِّكه ، وليس مظهره .. أما قاعة التدريبات ، فهى قبوّ خاص ، يمكن صنع مثيل له فى أى مبنى ، وكل مايحدث هو أن المصعد يهبط إليها .

غمغم (عصام) فى انبهار :

ـــ ياإلٰهى !!

ابتسم (عادل) ، وربَّت على كتفه ، قائلًا فى هدوء :

ـــ انفض عنك ذلك الانبهار والخوف إذن يا (عصام) ، وواصل عملك فى نجاح .. أرسل إلى هؤلاء الأوغاد بعض المعلومات..

قال (عصام) فى توتُّر :

ـــ سأطلعكم على كل ماأرسله من معلومات بالطبع .. أليس كذلك ؟

هزَّ (عادل) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى هدوء :

ـــ لاضرورة إلى ذلك فى البداية .

سأله (عصام) فى قلق :

ـــ هل أرسلها دون أن تعرفوها إذن ؟

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ـــ ومن قال لك إننا لن نعرفها ؟

هتف (عصام) :

ـــ لن تعرفوها بالتأكيد .. فلن أطلعكم عليها قبل إرسالها ، ولا يمكنكم استقبالها إلا بوساطة ذلك الجهاز الخاص ، و.....

قاطعه (عادل) فى هدوء :

ـــ إننا نملك مثله منذ عامين على الأقل .

حدّق (عصام) فى وجهه بدهشة ، وهو يغمغم :

ـــ منذ عامين ؟!

ابتسم (عادل) ، مجيبا :

ـــ أو أكثر قليلًا .

واتسعت ابتسامة (عادل) ..

اتسعت لتصنع معها ابتسامة كبيرة ، على وجه (عصام) ، وفى قلبه ..

قلبه الذى امتلأ فجأة بثقة لا حدود لها ..

إنه مواطن قوى ، فى بلد عظيم ..

إنه يعمل لحساب جهاز متفوّق متطوّر ..

وهذا ما كان يحتاج إلى معرفته ، قبل أن يمضى قُدمًا فى (لُعبة الثعالب) ..

كان يحتاج إلى الثقة ..

* * *

٦ ـــ التطـوُّر ..

كان الشتاء يحتضر ، والربيع يستعد للنهوض ، فى أوائل شهر (مارس) ، عندما قطع (ريمون) ، بقامته الطويلة ، ووجهه النحيل ، ذلك الشارع الرئيسى ، من شوارع (باريس) ، متجهًا نحو ذلك الفندق البسيط ، ليسأل موظف الاستقبال فى بُرُود :

ـــ هل (رولان) بأعلى ؟

غمغم موظف الاستقبال فى روتينيَّة :

ـــ إنه فى حجرته يا مسيو (ريمون) :

صعد (ريمون) إلى حجرة (رولان) ، وطرق بابها عدَّة طرقات منتظمة ، قبل أن يدفعه ، ويدلف إلى حجرة (رولان) ، الذى تطلَّع إليه فى بُرُود ، قائلًا :

ـــ ماذا هناك يا (ريمون) ؟

ناوله (ريمون) ورقة كبيرة ، وهو يقول :

ـــ رسالة أخرى من الصحفى المصرى .

تألّقت عينا (رولان) ، وهو يقول :

ناوله (ريمون) ورقة كبيرة ، وهو يقول :

ــ رسالة أخرى من الصحفى المصرى ..

ــ هل عرضتها على قسم تحليل المعلومات ؟

أومأ (ريمون) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ كلها معلومات صحيحة .

تنهدَّ (رولان) فى ارتياح ، واسترخى فى مقعده ، ونفث دُخان سيجاره فى عمق ، وهو يقول :

ــ رائع .. هذا الصحفى رائع حقًا .

عقد (ريمون) حاجبيه الكثَّين ، وهو يقول :

ــ يبدو أنك كنت على حقٍّ ، فى أمر تجنيده ياعزيزى (رولان) .

ابتسم (رولان) فى زهو ، وهو يقول :

ــ إننى على حقٍّ دائمًا ياعزيزى (ريمون) .

ونفثَ دُخان سيجاره مرَّة أخرى فى عمق ، قبل أن يردف :

ــ ثلاثة أشهر ، و (عصام) يرسل لنا معلومات سليمة فى انتظام ، ونحن نرسل له راتبه فقط .

غمغم (ريمون) .

ــ هل ننتقل إلى الخطوة التالية ؟

صمت (رولان) لحظة ، قبل أن يغمغم :

ـــ نعم .. أظن الوقت قد حان لذلك ..

وراح ينفث دُخان سيجاره فى بطء وهدوء ، وهو يفكّر فى عمق ، قبل أن يسأل (ريمون) فى اهتمام :

ـــ كيف ينفق الصحفى مكافأته ؟

أجابه (ريمون) فى هدوء :

ـــ ببذخ شديد ، حتى أننى أخشى أن يلفت الأنظار إليه بذلك .. لقد أبدل سيارته بأخرى من نوع (المرسيدس) ، وأبدل أثاث منزله ، و.....

قاطعه (رولان) ، مغمغمًا فى تلذُّذ :

ـــ رائع .

ثم التفت إلى (ريمون) ، مستطردًا فى اهتمام :

ـــ هذا يَعْنى أنه لم يَعُد يستطيع التخلّى عن النقود ، وأنه قد اعتاد الإنفاق فى بذخ ، وأصبح مهيَّأً للخُطوة التالية .

وعاد يتطلّع إلى النافذة فى بطء ، وينفث دُخان سيجاره فى عمق ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـــ اطلب منه بعض المعلومات العسكرية يا (ريمون) .

ارتفع حاجبا (ريمون) فى دهشة ، وهو يهتف :

ـــ ماذا ؟!

أجابه (رولان) فى صرامة :

ـــ قلت لك اطلب منه بعض المعلومات العسكرية .

هتف (ريمون) فى دهشة :

ـــ مباشرةً ؟!

نفث (رولان) دُخان سيجاره ، وهو يقول فى حزم :

ـــ مباشرةً .

رَانَ الصمت لحظة ، ثم قال (ريمون) فى حِدَّة :

ـــ وماذا لو رفض ؟

أجابه (رولان) فى هدوء وثقة :

ـــ لن يرفض .

هتف (ريمون) فى غضب :

ـــ وماذا لو فعل ؟

التفت إليه (رولان) فى هدوء ، ونفث دُخان سيجاره فى وجهه ، قبل أن يقول فى حزم :

ـــ فى هذه الحالة لن يحصل منَّا على قرش واحد .

وعاد يشيح بوجهه ، مستطردًا :

ـــ وهو سيخشى هذا ، بأكثر مما نخشاه نحن .. ثِق بذلك .

* * *

بدا (عصام) شديد التوتُّر ، وهو يجلس فى حجرة (عادل) ، ويسأله فى قلق :

ــ هل قرأت الرسالة الأخيرة ؟

أجابه (عادل) فى هدوء :

ــ نعم .. قرأتها حرفًا حرفًا .

سأله (عصام) فى توتُّر :

ــ وما رأيك ؟

ابتسم (عادل) ، وهو يسأله فى هدوء :

ــ فى ماذا ؟

التفت إليه (عصام) فى حِدَّة ، قائلًا :

ــ فى طلبهم للمعلومات العسكرية .

اتسعت ابتسامة (عادل) ، ونهض من خلف مكتبه ، وانتقل ليجلس على المقعد المواجه لـ (عصام) ، وشبَّك أصابع كفَّيه أمام وجهه ، وهو يقول :

ــ وماذا فى هذا ؟

كاد (عصام) يقفز من فوق مقعده مبهُورًا ، وهو يهتف :

ــ ماذا تقول بالله عليك ؟

أجابه (عادل) فى هدوء :

ــ أقول إنَّهم ما داموا قد طلبوا بعض المعلومات العسكرية ، فمن الضرورى أن ترسلها لهم .

ثم مال نحو (عصام) ، مستدركًا بابتسامة ذات مغزى :

ــ تحت إشرافنا .

تطلَّع إليه (عصام) لحظات فى حَيْرَة ، ثم عاد يسترخِى فى مقعده ، مغمغمًا :

ــ ألا يمثِّل هذا أيَّة خطورة ، على أمننا القومى ؟

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ــ دَعْ لنا هذه المهمَّة .

رَانَ الصمت لحظات ، قبل أن يغمغم (عصام) فى حَيْرَة :

ــ عجبًا !!

لم يزد على هذا القول ، فمال (عادل) نحوه ، يسأله فى هدوء :

ــ ماذا يقلقك ؟

أجابه (عصام) فى توتُّر :

ــ لقد كنت أتصوَّر أنكم سترفضون ذلك حتمًا ، حتى إننى فكَّرت فى إرسال الرد بالرفض مباشرةً .

قال (عادل) فى هدوء :

ـــ خطأ يا عزيزى .

ثم عاد يميل نحوه ، قائلًا :

ـــ جزء كبير من التلاعب بالخصم ، فى (لُعبة الثعالب) هذه ، يعتمد على إيهام الخصم بأنه يسير فى الطريق الصحيح ، الذى يخطِّط له ، وبالنسبة لهم ، من المفروض أن تكـون شخصيتك قد تغيرَّت تمامًا ، فأصبحت مُسرفًا ، تنفق المال بلا حساب ، وهذا يَعْنِى أنه من المستحيل أن تتخلَّى عنه ؛ لذا فمن المنطقِىّ أن تتردَّد بعض الوقت ، عندما يطالبـونك بالمعلومات العسكرية ، ثم تستسلم فى النهاية ، وترسلها صاغرًا .

واسترخى مرَّة أخرى فى مقعده ، وعاد يشبِّك أصابع كفَّيه أمام وجهه ، مستطردًا بابتسامة واسعة :

ـــ إنها قواعد (لعبة الثعالب) يا صديقى ..

* * *

برقت عينا (رولان) فى جَذَل ، وهو يقرأ رسالة (عصام) الأخيرة ، قبل أن ينحِّيَها جانبًا ، قائلًا :

ـــ رائع .. هذا الصحفى موهوب فى مجال التجسُّس .

عقد (ريمون) حاجبيه الكثَّين ، وهو يقول :

ـــ هـذا الأسلـوب المنمَّـق يُورثنـى القلـق والشَّكَّ يا (رولان) ، أليس من المحتمل أن هذا الصحفى يعبث بنا ؟

أطلق (رولان) ضحكة عالية ، قبل أن يقول :

ـــ يبدو أنك تغار من نجاحى يا عزيزى (ريمون) .

تمتم (ريمون) بكلمات غاضبة مُبهمة ، فعاد (رولان) يطلق ضحكة ساخرة عالية ، قبل أن يستطرد :

ـــ حـذارِ يا عزيزى (ريمون) .. أخشى أنك مضطـر للتغلُّب على كراهيتك لهذا الفتى ، فسأكلِّفك مرافقتـه فى المرحلة القادمة .

ازداد انعقاد حاجبى (ريمون) ، وهو يغمغم فى سُخط :

ـــ أيَّة مرحلة ؟

برقت عينا (رولان) ، وهو يقول :

ـــ المرحلة العَلَنِيَّة يا صديقى ، فلقد حان الوقت ليعلـم صديقنا الصحفى المصرى حقيقـة مهمَّته ، ولحساب مـن يعمل ..

وصمت لحظة ، قبل أن يستطرد فى حزم :

ـــ حان الوقت لإعداده جاسوسًا ..

* * *

٧ ــ الدعــوة ..

شعر (عصام) بتوتُّر بالغ ، وهو يطالع رسالة (رولان) الأخيرة ، للمــرَّة الثالثــة ، منــذ تلقَّاهــا على جهـــاز (الفاكسميلى) ، منذ لحظات ..

وفى عصبيَّة واضحة ، دسَّ الرسالة فى جيبه ، وغـادر منزله ، وتجاهل سيارته تمامًا ، وهو ينتقل من شارع إلى آخر على قدميه ، حتى توقَّف أمام كشك صغير لبيع السجائر ، وقال لصاحبه فى توتُّر :

ــ إننى أبحث عن نوع خاص من السجائر .. هل أجده لديك ؟

تأمَّله الرجل فى هدوء ، وقال :

ــ ما اسمه ؟

أجابه (عصام) فى قلق :

ــ بحر الثعالب .

ارتسمت على شفتى الرجل ابتسامة باهتة ، لم تلبث أن تلاشت فى سرعة ، وهو يقول :

ــ وهل تحتمل أمواجه ؟

أجابه (عصام) فى توتُّر :

ــ لو أن زورقى متين .

التفت الرجل ، وكأنه يبحث عن مطلب (عصام) ، ثم التفت إليه ، وناوله علبة صغيرة ، وهو يقول فى هدوء :

ــ ثمنها جنيه واحد .

تناول (عصام) العُلبة ، وقرأ الرقم المدوَّن على سطحها ، ثم ابتعد قليلًا عن الكشك ، وألقاها فى جيبه ، ووقف ينتظر فى هدوء ، وهو يتابع أرقام سيارات الأجرة فى اهتمام ، حتى لمح واحدة تقترب فى هدوء ، وهى تحمل نفس الرقم المدوَّن على العُلبة ، وسائقها يحيط عدَّادها بمنشفة صفراء ، معلنًا انتهاء نوبة عمله ..

ومن العجيب ، وعلى الرغم من أن هذا السائق كان يرفض التوقُّف ، لالتقاط أى ركَّاب ، إلا أنه قد توقَّف أمـام (عصام) ، بمجرَّد أن أشار إليه ، وتركه يركب السيارة ، ثم انطلق بها ، دون أن يسأله حتى عن وِجهته ..

ولم يتبادل أيهما كلمة واحدة مع الآخر ، حتى توقَّفت السيارة أمام مبنى قديم ، فغادرها (عصام) ، وأبرز بطاقته

التفت الرجل ، وكأنه يبحث عن مطلب (عصام) ، ثم التفت إليه ، وناوله علبة صغيرة ..

لحارس البوَّابة ، الذى راجع بياناتها فى سرعة ، ثم سمح لـ (عصام) بالدخول فى هدوء ..

وفى الطابق الثانى من ذلك المبنى ، التقى (عصام) بـ (عادل) ، الذى استقبله فى ترْحاب ، ودعاه للجلوس ، قائلًا :

ــ مرحبًا يا (عصام) .. كيف حالك ؟.. لاريب أن أمرًا بالغ الخطورة جعلك تأتى إلى هنا ، دون موعد سابق .

غمغم (عصام) :

ــ أنت تعلم أن هذا يقلقنى أيضًا ، فأنت تشترط أساليب غاية فى التعقيد ، حتى نلتقِىَ .

هزَّ (عادل) كتفيه ، قائلًا :

ــ هذا من أجل أمنك وسلامتك أنت .

أومأ (عصام) برأسه ، مغمغمًا :

ــ إننى أقدِّر ذلك .

رَانَ الصمت عليهما لحظات ، ثم سأله (عادل) فى هدوء :

ــ هل من جديد ؟

رفع (عصام) عينيه إليه ، دون أن ينبس ببِنْتِ شفة ، فاستطرد فى هدوء :

ـــ أيُقلِقُك أنهم يطلبون منك السفر إلى (باريس) ؟

أجابه (عصام) فى توتُّر :

ـــ بالتأكيد .. من يعلم ما الذى يعدُّونه لى هناك ؟

عقد (عادل) حاجبيه ، وهزَّ رأسه فى بطء ، وهو يقول :

ـــ لست أظنّه ضررًا .

سأله (عصام) فى قلق :

ـــ لماذا تظنهم يستدعوننى إذن ؟

هزَّ (عادل) كتفيه ، قائلًا :

ـــ أظنُّهم سينقلونك إلى مرحلة أعلى .

ضاقت حَدَقتا (عصام) ، وهو يقول فى توتُّر :

ـــ فقط ؟!

أومأ (عادل) برأسه إيجابًا ، مغمغمًا :

ـــ فقط .

رَانَ عليهما الصمت لحظات أخرى ، بدت لكل منهما كالدهر ، قبل أن يقول (عصام) :

ـــ أتظنُّهم يسمحون لى بالسفر فى الجريدة ؟

هزَّ (عادل) رأسه ، مغمغمًا :

ـــ لست أدرى .

ثم استدرك فى اهتمام :

ـــ ولكننا لن نعاونك فى ذلك .

عقد حاجبيه ، مغمغمًا فى حِدَّة :

ـــ لماذا ؟

أجابه (عادل) فى هدوء :

ـــ حتى لاينكشف أمرك ، لو أن لـ (الموساد) جاسوسًا هناك .

أومأ (عصام) برأسه متفهِّمًا ، وقال :

ـــ أنت على حقٍّ .

ثم نهض من مقعده ، مردفًا :

ـــ ولست أظنّ رئيس التحرير يعترض على سفرى إلى (باريس) .

نهض (عادل) بدَوْرِه ، ووضع يده على كتف (عصام) ، قائلًا :

ـــ كُنْ على حَذَر يا (عصام) .

ابتسم (عصام) ابتسامة متوتِّرة ، وهو يغمغم :

ــ سأحاول .

لم يتبادلا كلمة إضافية ، حتى غادر (عصام) المكان ، ولم يكد يفعل ، حتى دلف (إبراهيم) إلى حجرة (عادل) ، وسأله فى اهتمام :

ــ لماذا تظنّهم يريدونه ؟

هزَّ (عادل) رأسه نفيًا فى بطء .. مغمغمًا :

ــ لست أدرى .. ولكننى أشعر بالقلق .

عقد (إبراهيم) حاجبيه ، وهو يقول :

ــ أتظنّهم قد كشفوا أمره ؟

هتف (عادل) :

ــ مستحيل !

عاد (إبراهيم) يسأله :

ــ لماذا يريدونه إذن ؟

رَانَ الصمت لحظات ، قبل أن يغمغم (عادل) :

ــ لست أدرى يا (إبراهيم) .. لست أردى بعد .. وعمومًا ، لقد تلقَّى (عصام) ، فى الأشهر الثلاثة الماضية ،

كل التدريبات اللازمة ، لكل الاحتمالات الممكنة ، ولست أخشى عليه شيئًا .

وصمت لحظة أخرى ، قبل أن يردف فى حزم :

ــ الشىء الوحيد ، الذى أثِق بِهِ ، هو أنهم يريدونه لينتقل إلى مرحلة جديدة .. مرحلة أكثر خطورة .

★ ★ ★

٨ ــ شمس (باريس) ..

على الرغم من أن (باريس) كانت أكثر بهجةً وإشراقًا ، فى ذلك اليوم ، عنها يوم هبط إليها (عصام) أوَّل مرَّة ، إلا أنه لم يشعر بتلك النَّشوة ، التى شعر بها فى المرَّة السابقة ، وهو يغادر الدائرة الجمركية قلقًا متوتِّرًا ..

كانت شمس (باريس) تغمره هذه المرَّة ، ولكنه كان يشعر بخيوطها كإبر حادَّة ، تغوص فى جسده بلا رحمة أو شفقة ..

لقد كان فى المرَّة السابقة مُقْدِمًا على الحياة ..

واليوم يُقْدِمُ على الموت ..

وأمام المطار ، وقف متوتِّرًا ، قلقًا ، يتلفَّت يَمْنَةً ويَسْرَةً ، حتى توقَّفت أمامه نفس (البورش) الصفراء ، ذات المقعدين ، التى قادته إلى مخبإ (رولان) السِّرِّىّ لأوَّل مرَّة ، يقُودها نفس السائق الغليظ الملامح ، الأجش الصوت ، الذى قال فى خُشونة :

ــ مرحبًا بك مرَّة أخرى ، فى (باريس) يامسيو (عصام) .

لم يَرُدَّ (عصام) تحيته ، وهو يدلف إلى السيارة ، ويسأله فى توتُّر :

ــ متى ألتقى بمسيو (رولان) ؟

ابتسم السائق ، وهو يقول :

ــ الآن .

هتف (عصام) فى دهشة .

ــ الآن ؟!

اتسعت ابتسامة السائق ، وكأنما تـرُوق لـه دهشة (عصام) ، وهو يجيب :

ــ نعم .. ستلتقِى به طَوَال إقامتك فى (باريس) .. فستقيم هذه المرَّة فى قصره .

وجد (عصام) نفسه يهتف فى ذُهُول :

ــ فى قصره ؟!

قهقه السائق ضاحكًا ، قبل أن يقول بالعربية :

ــ هل يدهشك ذلك ؟

التفت إليه (عصام) فى دهشة ، وعقد حاجبيه فى حِدَّة ، وهو يسأله :

ــ ما جنسيتك يا رجل ؟

أجابه الرجل فى سُخرية :

ــ هل تصرُّ على معرفة ذلك ؟

سأله (عصام) فى حِدَّة :

ــ كيف تصادف أنك تتحدَّث العربية ، وبتلك اللهجة المصرية ؟

ابتسم الرجل مرَّة أخرى فى سُخرية ، قائلًا :

ــ لقد ولدت فى (القاهرة) .. وعشت فى طرقاتها وأزقَّتها حتى بلغت الثانية عشرة ، قبل أن أهاجر .

سأله (عصام) فى توتُّر :

ــ تهاجر إلى أين ؟

رمقه السائق بنظرة جانبية ، قبل أن تتسع ابتسامته الساخرة ، وهو يجيب :

ــ إلى أين فى تصوُّرك ؟.. إلى (إسرائيل) بالطبع .

هتف (عصام) :

ــ (إسرائيل) ؟!

عقد الرجل حاجبيه ، وهو يختلس النظر إليه فى اهتمام ، قائلًا :

ــ ماذا ؟.. هل أقلقك ذلك كثيرًا ؟

سيطر (عصام) على مشاعره ، وهزَّ كتفيه فى هدوء ، قائلًا :

ــ لماذا ؟.. إنها دولة كأيَّة دولة .

هتف الرجل فى صرامة :

ــ بل هى أفضل من أيَّة دولة أخرى .

ابتسم (عصام) فى سُخرية ، وهو يقول :

ــ القرد فى عين أمه .....

سأله السائق فى خشونة :

ــ ماذا تقول ؟

أطلق (عصام) ضحكة قصيرة خافتة ، قبل أن يقول :

ــ لاشىء .. إنما كنت أردِّد أحد الأمثال الشعبية المصرية .

عقد الرجل حاجبيه فى غضب ، وأشاح بوجهه ، قائلًا فى غِلظة :

ــ لابأس .. لقد وصلنا .

أدار (عصام) عينيه إلى قصر (رولان) الضخم ، وهتف هاتف فى أعماقه ، بكل مايملأ نفسه من خوف وقلق ، وكل ماينتظره من ظلام ومخاطر ومجهول :

ــ نعم .. لقد وصلنا ..

* * *

استقبل (رولان) (عصام) فى ترحاب ، وابتسم ابتسامة واسعة ، وهو يصافحه فى حرارة ، قائلًا :

ـــ مرحبًا يامسيو (عصام) .. مرحبًا .. كم تُسعدنى رؤيتك هذه المرَّة .. لقد أثبتَّ تفوُّقًا ملحوظًا طَوال الأشهر الثلاثة الماضية .

ابتسم (عصام) ، وهو يتقمَّص ذلك الدور ، الذى رسمه له (عادل) ، قائلًا :

ـــ ألا يستحق هذا مكافأة إضافية ؟

أطلق (رولان) ضحكة عالية ، وهو يقول :

ـــ بالتأكيد .

ثم أخرج من جيب سترته ، حافظة مُتخمة بأوراق النقد ، قائلًا :

ـــ كم تريد يامسيو (عصام) ؟

أجابه (عصام) فى هدوء :

ـــ بكم تقوِّم عملى هذه المرَّة ؟

أطلق (رولان) ضحكة عالية ، وقال :

ـــ بكثير .. لقد كانت المعلومات العسكرية الأخيرة رائعة . .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى اهتمام :

ـــ كيف حصلت عليها ياترى ؟

ابتسم (عصام) فى خُبث ، وهو يقول :

ـــ هل تطلب منِّى كشف مصادرى ؟

قهقه (رولان) ضاحكًا مرَّة أخرى ، قبل أن يُردف :

ـــ كلَّا .. لن أطالبك بذلك .

وتناول من حافظته بضع أوراق مالية ، ناولها لـ (عصام) ، قائلًا :

ـــ هل تكفى هذه ؟

مطَّ (عصام) شفتيه ، مغمغمًا :

ـــ مؤقتًا .

ودسَّ المبلغ فى جيبه ، و (رولان) يتابعه ببصره فى اهتمام بالغ ، قبل أن يسأله :

ـــ هل يُروق لك العمل معنا يامسيو (عصام) ؟

ابتسم (عصام) ، وهو يقول :

ـــ بالتأكيد .. إنكم تدفعون فى سَخاء .. إننى لم أكن أتصوَّر العمل مع وكالات الأنباء مربحًا إلى هذا الحدّ .

وتناول من حافظته بضع أوراق مالية ، ناولها لـ (عصام) ، قائلًا :

ــ هل تكفى هذه ؟.

ارتسمت على شفتى (رولان) ابتسامة خبيثة ، وهو يغمغم :

ــ ومن قال إنه كذلك ؟

تطلَّع إليه (عصام) فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ــ ماذا تَعْنِى ؟.. أأحْصُل على مكافآت خاصة ، أم .....؟

قاطعه (رولان) ، قائلًا :

ــ إنك تحصل على مكافآت خاصة بالطبع ، ولكنها ليست من وكالة الأنباء .

غمغم (عصام) فى ارتباك حقيقِى :

ــ من أين إذن ؟

عادت تلك الابتسامة الخبيثة ترتسم على شفتى (رولان) ، وهو يقول :

ــ ليس الآن ياعزيزى .. لاتتعجَّل كل الأجوبة بفُضُول الصحفى .. سأخبرك بعد تناول العشاء ، وبعد أن يقدِّم لك خادمى الجديد (أندريه) قهوته الخاصة .

وأشار إلى شاب هادئ ، يحمل الملامح الفرنسية التقليدية ، ويقف هادئًا ، أنيقًا فى ركن البهو ، فالتفت الشاب إلى خادم

زنجى ، قدَّم إليه صينية من الذهب ، استقرَّ فوقها قدحان من القهوة ، وتقدَّم بها نحو (عصام) ، وانحنى أمامه فى احترام ، مغمغمًا :

ــ قهوتك يا مسيو .

مدَّ (عصام) يده ليتناول قدح القهوة ، وهو يبذل جهدًا خرافيًا ، للسيطرة على أصابعه ، التى تصرُّ على الارتجاف فى قوة ، بمجرَّد شعوره بأنه هنا ، فى قصر (رولان) ، ووسط رجال هذا الأخير ، وحده ، بلامعين ، وأن أى خطإ منه ، قد يَعْنِى قتله على الفور ، بلا رحمة أو شفقة ..

وفجأة ، ارتجف جسد (عصام) كله ، ودَوَّت فى رأسه عبارة (عادل) قوية ، وكأنه يسمعها من بين شفتيه مباشرة :

ــ ستجدنا دائمًا إلى جوارك .. دائمًا .

فأمام عينيه مباشرة ، كان (أندريه) يبتسم ، وبين أسنانه استقرَّ زِرٌّ صغير ، يحمل علم (مصر) ، وهو يهمس فى هدوء ، بلهجة مصرية خالصة :

ــ إنك تفضِّلها قليلة السكر .. أليس كذلك ؟

لقد كان (أندريه) هذا مصريًا ..

لقد تسلَّل رجالنا إلى قلب قصر (رولان) ..

وهنا شعر (عصام) بثقة هائلة تسرِى فى عروقه ، وبارتياح لامثيل له .

وفى هدوء ، تناول قدح القهوة ، والتفت إلى (رولان) ، قائلًا :

ــ قُل لى يا مسيو (رولان) .. ما الذى أعجبك فى تقريرى العسكرى الأخير ..

وكانت كلماته كلها تنطق بالثقة ..

ثقة بلاحدود ..

* * *

شارك (عصام) (رولان) طعام العشاء ، دون أن يلمح غزال (ريمون) ، فسأل (رولان) ، بعد أن انتقلا إلى حجرة مكتب هذا الأخير :

ــ كيف حال مسيو (ريمون) ؟.. إننى لَمْ أرَهُ منذ حين .

غمغم (رولان) فى هدوء :

ــ إنه ليس هنا .. لقد سافر إلى الوطن .

هتف (عصام) فى دهشة :

ــ الوطن ؟!.. أليست (فرنسا) وطنه ؟

هزَّ (رولان) كتفيه ، قائلًا فى حزم :

ــ كلَّا .. إنه مثلى .. فرنسى المولد والاسم فحسب .

تظاهر (عصام) بالبساطة والسذاجة ، وهو يسأله :

ــ ما موطنكما الحقيقِىّ إذن ؟

صمت (رولان) لحظات ، قبل أن يقول ، متجاهلًا سؤال (عصام) تمامًا :

ــ هل تكفيك المكافأة ، التى تحصل عليها يا مسيو (عصام) ؟

ابتسم (عصام) ، وهو يقول :

ــ إلى حدٍّ ما .

تأمَّله (رولان) فى هدوء ، قبل أن يضيف :

ــ أيقلقك كثيرًا لحساب من تعمل ، مقابل ضعف هذا المبلغ ؟

أطلق (عصام) ، من بين شفتيه ، صفيرًا طويلًا ، يشفُّ عن الانبهار ، قبل أن يهتف :

ــ يُقلقنى ؟!.. إننى أعمل لحساب الشيطان نفسه يا مسيو (رولان) مقابل ضعف هذا المبلغ .

ارتسمت ابتسامة زهو على شفتى (رولان) ، وهو يقول :

ــ بل ستعمل لحساب من هم أقوى من الشيطان يا مسيو (عصام) .

واعتدل ، ناصبًا قامته فى اعتدادٍ ، وقائلًا فى حزم :

ــ ستعمل لحساب (الموساد) ..

هتف (عصام) فى دهشة ، بذل جهدًا هائلًا لافتعالها :

ــ (الموساد) ؟!

أجابه (رولان) فى صرامة .

ــ نعم يا مسيو (عصام) .. ستعمل لحساب (إسرائيل) .. لحسابها مباشرةً .

★ ★ ★

٩ ــ حلقة النيران ..

جلس (إبراهيم) و (عادل) ، فى مكتب هذا الأخير ، أمام ورقة كبيرة ، حملت كل الاحتمالات الممكنة ، للغرض من طلب سفر (عصام) إلى (باريس) ، وهما يشطبان كل احتمال ، يبدو غير منطقىّ ، حتى تبقّى أمامهما احتمال واحد ، أشار إليه (عادل) ، قائلًا :

ــ هذا هو الاحتمال المنطقِىّ الوحيد الباقى ، بعد مناقشة كل الاحتمالات الأخرى ، واستبعادها .

غمغم (إبراهيم) :

ــ إنه يبدو لى كذلك منذ البداية .

تنهّد (عادل) ، وقال :

ــ هذا يَعْنِى أنهم سيواجهون (عصام) بالحقيقة مباشرةً هذه المرّة .

غمغم (إبراهيم) :

ــ أظنّ ذلك .

نقر (عادل) بأصابعه على سطح مكتبه فى توتُّر ، قبل أن يغمغم :

ــ وهذا يَعْنِى أنهم سينتقلون بـ (عصام) إلى مرحلة جديدة .

قال (إبراهيم) :

ــ بالتأكيد .

زفر (عادل) فى عمق ، وقال :

ــ وهذا يَعْنِى أن (عصام) سيحتاج إلى كل معاونة ممكنة من جانبنا .

قال (إبراهيم) فى اهتمام :

ــ (سليمان) هناك ، فى شخصية (أندريه) .

هزَّ (عادل) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ (سليمان) لن يكفى وحده .. الأمر يحتاج إلى نوع من التعاون ، بيننا وبين المخابرات العامة .

سأله (إبراهيم) فى دهشة :

ــ لماذا ؟.. إننا نقود العملية كلها وحدنا حتى الآن ، ولن يَرُوق للسيِّد المدير تسليمها للمخابرات العامة هكذا .

عقد (عادل) حاجبيه ، وهو يغمغم :

ــ فى هذه الحالة ينبغى أن أستعد بنفسى ، لِلَعبِ دور معقَّد للغاية .

هتف (إبراهيم) فى حَيْرَة :

ــ لماذا كل هذا ؟

التفت إليه (عادل) ، قائلًا فى حزم :

ــ لأنه لو كان استنتاجنا صحيحًا ، فَسَيَعْنِى هذا أنه من الضرورى أن يتلقَّى (عصام) عدَّة تدريبات جديدة ، ويتعرَّض لعدد من الاختبارات الأكثر تعقيدًا ، وهذا لن يتمّ فى (باريس) بالتأكيد .

سأله (إبراهيم) فى دهشة :

ــ أين إذن ؟

التفت إليه (عادل) ، وبدا صوته حازمًا ، وهو يقول :

ــ خمَن ..

* * *

ظلَّ (عصام) يتصنَّع الدهشة طويلًا ، وهو يحدِّق فى وجه (رولان) ، بعد أن أطلق هذا الأخير تصريحه المخيف ، حتى ابتسم (رولان) فى ظفر ، قائلًا :

ــ ماذا أصابك ياعزيزى (عصام) ؟.. هل أدهشك تصريحى إلى هذا الحدّ ؟

غمغم (عصام) فى خُفُوت ، وهو ينفض عنه أمارات الدهشة :

ــ ليس إلى هذا الحدّ ..

ثم رفع عينيه إلى (رولان) ، مستطردًا فى حزم :

ــ لقد كنت أتوقَّع ذلك إلى حدٍّ ما .

عقد (رولان) حاجبيه ، وكأنما لم تُرُق له عبارة (عصام) الأخيرة ، وهو يقول فى حِدَّة :

ــ منذ متى ؟

تنهدَّ (عصام) ، مغمغمًا :

ــ منذ البداية تقريبًا .

مطَّ (رولان) شفتيه ، وهو يقول :

ــ ومع ذلك قبلت العمل معنا ؟!

هزَّ (عصام) كتفيه ، وقال :

ــ كان المبلغ جيِّدًا ، وكانت مجرَّد شُكُوك .

تألَّقت عينا (رولان) ، وهو يقول :

ــ والآن ؟

عاد (عصام) يهزُّ كتفيه ، مغمغمًا :

ــ لست أدرى .. إننى لاأجد فارقًا كبيرًا فى الواقع .

وصمت لحظة ، ثم استدرك فى حزم :

ــ هذا لو أنك ستضاعف المرتب بالطبع .

ابتسم (رولان) فى ظَفَر ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد .. إنك لن تندم على العمل معنا أبدًا .

تنهدَّ (عصام) فى عمق ، وقال :

ــ إذن فكل هذا .. وكالة الأنباء والقصر ، و.....

قاطعه (رولان) مبتسمًا :

ــ كل هذا يتبع (الموساد) .

سأله (عصام) فى اهتمام :

ــ وهل يعلم المصريون ذلك ؟

هتف (رولان) فى استنكار :

ــ كلًا بالطبع .. المصريون يعلمون فقط ، مانرغب نحن فى تعريفهم إيَّاه .

ابتسم (عصام) فى سُخرية ، وهو يقول :

ــ وماذا عن خداعهم لكم فى حرب أكتوبر ؟

لوَّح (رولان) بكفِّه ، هاتفًا فى سُخط :

ــ كان هذا بمعاونة المخابرات السوفيتية .

رفع (عصام) حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، هاتفًا :

ــ هكذا ؟!

هتف (رولان) فى حِدَّة :

ــ بالتأكيد .. لايمكن أن يهزمنا المصريون وحدهم .

ثم اتجه نحو البار الصغير فى مكتبه ، وصَبَّ لنفسه كأسًا من الخمر فى عصبيَّة ، والتفت إلى (عصام) ، قائلًا :

ــ أمازلت ترفض تناول الخمر ؟

أومأ (عصام) برأسه إيجابًا ، وهو يبتسم ، قائلًا :

ــ إنها مسألة مبدأ .

جرع (رولان) كأسه دَفعةً واحدة ، ومسح شفتيه بكفِّه ، قبل أن يقول :

ــ الأمر الآن لم يَعُد بنفس البساطة ، التى سار عليها ، طَوَال الشهور الثلاثة الماضية .. إنك ستعمل لحسابنا ، على نحو صريح ، وهذا يَعْنِى أن تعلم الكثير من أسرارنا وخبايانا ، وتحوز أكثر من خبرة ومهارة ، وهذا يَعْنِى بدوره مزيدًا من التدريبات والاختبارات .

هزَّ (عصام) كتفيه ، قائلًا :

ــ أنَا على أتمِّ استعداد .

وابتسم وهو يردف فى ثقة :

ــ متى تحب أن أبدأ ذلك ؟.. الآن ؟

ثم اتجه نحو البار الصغير فى مكتبه ، وصَبَّ لنفسه كأسًا من الخمر فى عصبيَّة ، والتفت إلى (عصام) ..

هزَّ (رولان) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ كلَّا .. ليس الآن .. فهذه التدريبات لن تتم هنا .

سأله (عصام) فى هدوء :

ــ أين إذن ؟

صَبَّ (رولان) ، لنفسه كأسًا أخرى ، وهو يقول فى هدوء :

ــ فى الوطن .

ثم التفت إلى (عصام) .. مستطردًا فى حزم :

ــ فى (إسرائيل) ..

★★★

١٠ ــ ناقوس الخطر ..

« إسرائيل ؟!.. » ..

هتف (إبراهيم) بتلك الكلمة ، وهو يحدّق فى وجه (عادل) فى دهشة ، قبل أن يستطرد فى استنكار :

ــ مستحيل يا (عادل) !!.. ليس من السهل أن يرسلوه إلى هناك هكذا !!.

سأله (عادل) فى حسم :

ــ لماذا يا (إبراهيم) ؟.. لو أنهم صارحوه بطبيعتهم ، فَسَيَعْنِى هذا أنه إما أن ينتقل إلى مرحلة جديدة ، أو يتمّ إعدامه ، وأنت تعلم مثلى أنه سيقبل الانتقال إلى تلك المرحلة الجديدة ، لأن هذا ما أعْدَدْناه له ، ولقد سبق أن تناقشنا ، فى أن تلك المرحلة الجديدة تحتاج إلى مزيد من التدريبات والاختبارات ، ومن المحتم أن يتمّ ذلك فى (تل أبيب) نفسها .

انتهى (عادل) من حديثه ، فَرَانَ على الحجرة صمت رهيب ، قطعه (إبراهيم) ، وهو يغمغم فى انفعال :

ــ هذا يبدّل الكثير من الأمور .

وافقه (عادل) بإيماءة من رأسه ، وأضاف :

ــ ويضع (عصام) فى موقف شديد الحساسية والخطورة أيضًا :

عاد ذلك الصمت الرَّهيب يلفُّ الحجرة مرَّة أخرى ، قبل أن يضيف (عادل) فى حزم :

ــ ينبغى أن أسافر الآن إلى (باريس) .

غمغم (إبراهيم) فى توتُّر :

ــ لاتوجد طائرات إلى (باريس) الآن .

تطلَّع (عادل) إلى ساعته ، وقال :

ــ توجد طائرة إلى (روما) ، بعد ساعتين ، ومن (روما) يمكننى أن أستقلَّ طائرة الرابعة صباحًا إلى (باريس) .

وزفر فى عمق ، قبل أن يستطرد :

ــ المهم أن أصل إلى باريس ، أيًّا كان الثمن يا (إبراهيم) ، فلقد دخلت اللُّعبة منعطفًا جديدًا ودقَّ ناقوس الخطر ..

* * *

لم يكن (عصام) يتوقَّع عملية السفر إلى (إسرائيل) هذه أبدًا ، لذا فقد كانت دهشته هذه المرَّة حقيقية ، وهو يحدِّق فى وجه (رولان) ، الذى ابتسم فى خُبث ، وقال فى هدوء :

ــ هل أدهشك ذلك كثيرًا ؟

وجد (عصام) نفسه يهتف :

ــ جدًّا .

اتسعت ابتسامة (رولان) ، وقال فى لهجة مسرحية :

ــ لماذا ياعزيزى ؟.. إنك كما سبق أن قلنا ، تحتاج إلى تدريبات مكثَّفة ، ولن تجدها إلا عند الخبراء هناك .

غمغم (عصام) ، وقد بدأ يسيطر على هدوئه وأعصابه :

ــ بالتأكيد .

صمت لحظة ، التقط خلالها نفسًا عميقًا ، ليسيطر على تلك الارتجافة ، التى سَرَت فى جسده قوية ، قبل أن يقول :

ــ وكم ستستغرق رحلتى إلى هناك ؟

تأمَّله (رولان) فى إمعان ، وهو يجيب :

ــ حوالى الأسبوعين .

أومأ (عصام) برأسه متفهِّمًا ، وقال فى هدوء :

ــ لابأس .. سأعود إلى (القاهرة) ، وأنهى بعض التزاماتى ، ثم أعود إلى هنا ، و.....

قاطعه (رولان) فى لهجة بالغة الصرامة :

ــ إنك لن تغادر هذا القصر ، إلا إلى (إسرائيل) مباشرةً ياميسيو (عصام) .

مرَّة أخرى شعر (عصام) بمزيج من الدهشة والذُّعر ، وهو يهتف فى احتجاج :

ــ كلَّا ياميسيو (رولان) .. كان ينبغى أن تخبرنى بذلك ، قبل أن آتى إلى هنا .

مطَّ (رولان) شفتيه ، وهو يقول فى بُرود :

ــ وما الفارق ؟

هتف (عصام) :

ــ الفارق هو أننى قد حصلت على إجازة من عملى لأسبوع واحد ، ولو تجاوزتها فسأتعرَّض للفصل ، ثم إنه من غير المنطِقىّ أن يحمل جواز سفرى تأشيرتى دخول وخروج إلى ومن (إسرائيل) !

ابتسم (رولان) فى خُبث ، وهو يقول :

ــ لاتقلق بشأن عملك ، فَقُبَيْل موعد انتهاء إجازتك بيوم واحد ، ستحدث عملية إرهابية هنا ، وستعمل أنت على تغطيتها لمدة أسبوع آخر ، وسترسل تقاريرك إلى الصحيفة يوميًّا .

هتف (عصام) فى جَزَع :

ــ ماذا تعْنِى ؟!.. ألن أكون فى تلك الأثناء فى .....؟

قاطعه فى حزم :

ــ لاشأن لك بالتفاصيل ، فهذا ماسيحدث فحسب .

عقد (عصام) حاجبيه ، وهو يقول :

ــ وماذا عن تأشيرتى (إسرائيل) ؟

مطَّ (رولان) شفتيه ، وهزَّ كتفيه ، قائلًا :

ــ لست أدرى لماذا يُقلقك ذلك ؟.. لقد انتهت حالة الحرب بيننا وبينكم رسميًّا ، و.....

قاطعه (عصام) هذه المرَّة فى حِدَّة :

ــ اسمع يامسيو (رولان) .. أنت تعلم أن معاهدة السلام بيننا لم تلغِ كراهيتنا لكم بعد ، بسبب إصراركم على انتهاك كل الأعراف والمواثيق الدولية ، واستمراركم فى سياسة الاحتلال والعدوان ، و.....

هتف (رولان) فى حَنَق :

ــ أهِىَ محاضرة سياسية ؟

أجابه (عصام) فى حزم :

ــ إننى أنقل لك وجهة نظر المواطن المصرى العادى .. أو رجل الشارع ، كما تسمِّيه الجهات السياسية .

هتف (رولان) فى غضب :

ــ وماشأنك أنت برجل الشارع ؟

هزَّ (عصام) كتفيه ، وابتسم فى سُخرية ، وهو يقول :

ــ إنها مهنتى .. أنسيت أننى صحفِى ؟

لوَّح (رولان) بذراعه فى حَنَق ، صائحًا :

ــ حسنًا .. حسنًا .. فَلْننهِ ذلك النقاش السخيف ، ويكفِى أن تعلم أنك لن تحصل على تأشيرة دخول إلى (إسرائيل) .

عقد (عصام) حاجبيه ، وهو يقول :

ــ كيف سأدخلها إذن ؟

أجابه (رولان) فى عصبيَّة :

ــ سيصحبك (ريمون) إلى هناك ، وستحمل جواز مرور فحسب .

رَانَ الصمت لحظات ، ثم غمغم (عصام) :

ــ يبدو أنكم قد أعددتُم كل شىء .

أومأ (رولان) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ نعم .. كل شىء .

وارتشف رشفة من كأس الخمر ، التى يحملها بين أصابعه ، ثم أضاف فى حزم :

ـــ حتى أسلوب خروجك من هنا ، دون أن يلحظ أحدٌ ذلك .

توتَّرت عضلات وجه (عصام) ، وهو يتمتم :

ـــ وماذا تَعْنِى بذلك ؟

زفر (رولان) فى عمق ، وقال :

ـــ لقد رأينا أنه من الأفضل أن تنتقل ، من هنا إلى المطار ، على نحو بالغ السِّرِّيَّة ، حتى لا يعلم أى مخلوق أنك قد غادرت القصر ، حتى الخدم ؛ لذا فقد اتخذنا احتياطاتنا اللازمة .

هتف (عصام) فى توتُّر :

ـــ كيف ؟!

ألقَى (رولان) إليه نظرة باردة ، وأشعل سيجـارًا فى هدوء ، ونفثَ دُخانه فى عمق مرَّتين ، قبل أن يقول :

ـــ هناك نفق سرِّىَ ، يمتدُّ من قبو القصر ، وحتى فندق صغير ، فى أرقَى شوارع (باريس) ، وغدًا ، مع أوَّل خيوط الفجر ، سنعبُر ذلك النفق ، إلى الفندق ، حيث ستنتظرنا سيارة خاصة ، تنقلنا على الفور إلى المطار ، وهناك سنجـد (ريمون) فى انتظارنا ، لينقلك إلى (إسرائيل) .

شَحُب وجه (عصام) ، وهو يغمغم :

ـــ غدًا فى الفجر .

امتلأ وجه (رولان) كله بابتسامة ضخمة ، وهو يقول فى بُرود :

نعم .. غدًا مع الفجر .

رَانَ الصمت تمامًا على الحجرة ، بعد عبارته ، حتى لقد خُيِّل لـ (عصام) أن نبضات قلبه قد صارت مسموعة ، قبل أن يرتجف جسده كله ، على صوت طَرَقات هادئة ، على باب الحجرة ، أعقبها صوت (رولان) ، وهو يقول :

ـــ مَنْ ؟!

أتاه صوت فرنسى هادئ ، يقول :

ـــ (أندريه) ياسيدِّى .. أسأل ماإذا كنتما بحاجـة إلى شىء .

خَفَق قلب (عصام) فى قوة ، وأسرع يقول فى لهفة :

ـــ نعم .. قُل له إننى أريد كوبًا من الماء المثلَّج .

ألقَى (رولان) الأمر إلى (سليمان) ، ثم لَـمْ تمضِ لحظات ، حتى دلف هذا الأخير إلى الحجرة ، واتجه بكوب الماء المثلَّج إلى (عصام) ، وانحنى أمامه فى احترام ، قائلًا :

ـــ الماء يامسيو .

مال (عصام) نحوه ، وكأنه يلتقط الماء ، وهمس فى انفعال :

ــ سيرسلوننى إلى (إسرائيل) فجر الغد .. أبلغ العقيد (عادل محمود) بأى ثمن .

لم يُبْدُ له أن (سليمان) قد سمع كلمة واحدة ، أو فهم حرفًا واحدًا ، فقد بَدَت ملامحه هادئة ، جامدة ، وهو ينحنى مرّة أخرى ، ثم يعتدل ، منتظرًا انتهاء (عصام) من تناول الماء ..

وفى توتُّر بالغ ، وبأصابع مرتجفة للغاية ، جرع (عصام) قدح الماء ، وأعاده إلى (سليمان) ، الذى عاد ينحنى ، مغمغمًا :

ــ هنيئًا ياسيدِّى .

وغادر المكان فى هدوء ، تاركًا (عصام) خلفه فى ذِرْوَة الانفعال ..

وذِرْوَة الذُّعر ..

* * *

١١ ــ الرِّحلة ..

كانت رحلة (عادل محمود) ، إلى (باريس) ، شاقة للغاية ..

لقد هبطت به الطائرة ، فى مطار (روما) ، فى منتصف الليل تقريبًا ، حيث استقلَّ طائرة أخرى إلى (مارسيليا) ، ومن هناك حملته سيارة خاصة إلى (باريس) ، فوصلها فى الثالثة والنصف صباحًا ، مُنهكًا ، متهالكًا ، وعلى الرغم من ذلك ، فلم يكد يحطُّ رِحاله هناك ، حتى سأل أحد رجاله فى اهتمام :

ــ ماآخر أخبار (عصام) ؟

أجابه الرجل فى توتُّر :

ــ لاأخبار .. منذ دخوله إلى قصر (رولان) ، لم نعلم أى جديد على الإطلاق .

سأله (عادل) فى قلق :

ــ وماذا عن (سليمان) ؟

أجابه الرجل :

ــ المفروض أن يغادر القصر بعد لحظات ، فنوبة عمله تنتهى فى الثالثة والنصف .

فرك (عادل) أصابعه فى توتُّر ، وهو يقول :

ـــ لا ريب أنه يحمل أخبارًا .

وشَرَد ببصره لحظات ، قبل أن يردف :

ـــ إنه وسيلتنا الوحيدة ، لمعرفة أخبار (عصام) ، وحمايته .

* * *

كانت الحجرة ، التى أعدَّها (رولان) لمبيت (عصام) ، فاخرة بمعنى الكلمة ، تحوِى كل مايحلُم به المرء ، إلا أنها بدت لـ (عصام) أشبه بزنزانة سجن انفرادى ، لمتهم ينتظر موعد تنفيذ حكم الإعدام فيه ..

ومنذ أوَى إلى فراشه ، فى منتصف الليل تقريبًا ، لم يغمِض له جَفن ..

كان يتقلَّب كالمحموم ، وهو يتساءل :

ـــ هل سمعه (أندريه) وفهمه ؟!..

وكان هذا السؤال يُقلقه فى شدَّة ، إذ كانت حياته كلها تتوقَّف على معرفة جوابه ..

إنهم سيحملونه فجرًا إلى (تل أبيب) ، حيث يصبح فى قبضتهم تمامًا ، ويمكنهم أن يفعلوا به مايشاءُون ..

هل كشفوا أمره ياتُرَى ؟!

هل يقُودونه إلى فخٍّ ؟..

كلَّا ..

هذا غير منطقِىّ ..

إنهم ـــ كما قال (عادل) ـــ يمكنهم قتله هنا ، دون أن يشعر به مخلوق واحد ، ولا حاجة لهم بنقله إلى هناك ..

إنهم مازالوا يثقون به بالتأكيد ..

ولكن ينبغى أن يعلم (عادل) ، أنهم سيأخذونه إلى (إسرائيل) ..

من الضرورى أن يعلم ..

ولكن كيف ؟..

كيف ؟!..

وفجأة ، توتَّرت عضلاته كلها ، وتحفَّزت ، مع صوت خافت ، صدر من موضع النافذة ..

وعلى ضوء القمر الخافت ، رأى (عصام) رجلًا ، يعبث بمزلاج النافذة من الخارج ، فخفَق قلبه فى عُنف ، وهبَّ من فراشه ، وراح يبحث عن سلاح يدافع به عن نفسه ..

وعلى ضوء القمر الخافت ، رأى (عصام) رجلًا ، يعبث بمزلاج النافذة من الخارج ، فخفق قلبه فى عُنف ، وهبَّ من فراشه ..

وفجأة ، انفتحت النافذة ، وقفز جسد رشيق إلى الداخل ، وأسرع يُغلق النافذة خلفه ..

وبسرعة انقضَّ عليه (عصام) ، وأحاط عُنقه بذراعه فى عُنف ، وهو يقول فى صرامة :

ـ من أنت ؟.. ولماذا تتسلَّل إلى هنا ؟

هتف به المتسلِّل ، فى صوت خافت مختنق ، وبلهجة مصرية خالصة :

ـ رُوَيْدَكَ يا (عصام) .. إنه أنا .. (أندريه) :

تركه (عصام) فى سرعة ، وتشبَّث به ، هاتفًا :

ـ أنت ؟!.. ألَمْ ترحل بعد ؟.. ألَمْ تخبر (عادل) ؟

ربَّت (سليمان) على كتفه ، قائلًا فى حزم :

ـ مهلًا .. من الواضح أن هؤلاء الأوغاد يتخذون أقصى أساليب الحَيْطَة والحذَر هذه المرَّة ، فلقد كان من المفروض أن أنصرف ، منذ ربع الساعة ، إلا أنهم رفضوا انصراف كل طاقم الخدم تمامًا ، قبل صباح الغد .

هتف (عصام) فى ذُعر :

ـ يا إلـهى !!.. هذا يَعْنِى أنهم قد أحكموا الحصار تمامًا .

عقد (سليمان) حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ ليس تمامًا .. هناك وسيلة لإبلاغ الأمر بالتأكيد .

هتف (عصام) فى يأس :

ـــ كيف ؟

ثم عاوده الأمل بغتة ، فتشبَّث به ، هاتفًا :

ـــ أيمكنك الاتصال بالسفارة المصرية هاتفيًا ؟

هزَّ (سليمان) رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ هذا مستحيل .. كل أجهزة الهاتف هنا متصلة برقابة مركزية :

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـــ من الضرورى أن أحاول الخروج من هنا ، مهما كان الثمن .

ارتجف (عصام) ، وقال :

ـــ كيف ؟

ربَّت (سليمان) على كتفه ، وقال :

ـــ دَعْ لى هذه المهمَّة .. المهم أن تسيطر أنت على مخاوفك ، وليملأ عقلك مبدأ واحد ..

صمت لحظة ، قبل أن يردف فى حزم :

ـــ أنك تفعل هذا من أجل (مصر) .

كان لهذه العبارة مفعول السِّحر فى قلب (عصام) ..

لقد أزاحت منه فجأة كل الخوف والتوتُّر والقلق ..

وملأته بنوع من الطمأنينة والارتياح ..

وفى هدوء عجيب ، وصوت اختلطت صلابته بقوته ، قال (عصام) :

ـــ كل شىء يهُون ، من أجل (مصر) .

ابتسم (سليمان) فى ارتياح ، وهو يقول :

ـــ أحسنت .

ثم دفع مزلاج النافذة ، وقفز واقفًا على حافتها ، وهو يضيف فى هدوء :

ـــ وتذكَّر دَوْمًا ، أنه مهما حدث ، ومهما كانت نتائج محاولتى ، فلن تكون فى (إسرائيل) وحدك .

ابتسم (عصام) فى هدوء ، وهو يقول :

ـــ أعلم ذلك .

وقفز (سليمان) خارج النافذة ، وأغلقها (عصام) خلفه فى هدوء ، ثم اتجه إلى فراشه ، ونام ..

نام فى عمق شديد ..

* * *

سار (سليمان) فى حَذَر ، على الإفريز الخارجي لنوافذ القصر ، حتى بلغ ماسورة معدنية غليظة ، فتعلَّق بها ، وهبط فى سرعة ورشاقة إلى حديقة القصر ..

وحبس (سليمان) أنفاسه تمامًا ، وهو يتلفَّت حوله فى حَذَر ، ليتأكَّد من عدم وجود أحد الحراس إلى جواره ، قبل أن يتطلَّع إلى سور القصر ..

كان السُّور يبعد عنه بما لايزيد على عشرة أمتار ، يمكنه قطعها ركضًا فى خمس ثوان فحسب ؛ لذا فقد التقط نفسًا عميقًا ، واندفع نحو السور ، بكل مايملك من قوة ..

وفجأة ، سطعت الأضواء فى الحديقة ..

سطعت على نحو مباغت ، أربك (سليمان) ، وسمَّره فى مكانه ، قبل أن يرتفع صوت ساخر يقول :

ـــ (أندريه) ؟!.. ماذا تفعل فى الحديقة يارجل ؟

تلفَّت (سليمان) حوله فى حَذَر ، ورأى أربعة من رجال (رولان) يحيطون به ، ويصوِّبون إليه مدافعهم الآلية ، فهتف فى توتُّر ، بفرنسية لا يرقى إليها الشك :

ـــ لابدَّ لى من العودة إلى منزلى يامسيو .. أبنائى ينتظرونني ، وزوجتى لاتعلم أننى سأبقى هنا .

أطلق (يائيل) ، ذلك السائق الغليظ ، ضحكة ساخرة ، وقال :

ـــ هكذا؟!.. يالك من عاطفى مرهف الحسّ ياعزيزى (أندريه) .

هتف (سليمان) فى صرامة :

ـــ لابدَّ لى من العودة .

لم يكد يتمُّ عبارته ، حتى انقضَّ عليه الرجال الثلاثة الآخرون فجأة ، فمال برأسه بحركة غريزية ، متفاديًا لَكْمَة أحدهم ، وغاص إلى أسفل ، متفاديًا لَكْمَة آخر ، ثم هوَى بيُمناه على معدة الثالث ، وبيُسراه على فكِّ الأوَّل ، وتراجع فى حركة حادَّة ، و.....

وهَوَى على مؤخرة عنقه فجأة ، كعب بندقية (يائيل) ..

وترنَّح (سليمان) ، وحاول أن يقاوم الدُّوَار ، ليتم مهمَّته ، إلا أن جسده استسلم تمامًا ، فهوَى فاقد الوعى ..

وفى خشونة ، قال (يائيل) :

ـــ احملوه إلى الداخل .. وانتظروا حتى يستعيد وعيه ، ثم احملوا على استجوابه .. ينبغى أن نعلم من هو ، وما الذى كان يفعله خارجًا ؟

هيَّا .. سأنتزع مالديه من معلومات ، حتى ولو قطعت أطرافه طرفًا طرفًا .. هيَّا ..

* * *

١٢ ــ إلى وكر الأفاعى ..

تطلَّع (عادل) ، فى قلق بالغ ، إلى ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الرابعة والنصف صباحًا ، وقال فى توتُّر :

ــ لماذا لم يَعُد (سليمان) حتى الآن ؟

أجابه أحد رجاله :

ــ لست أدرى .. ولكن .....

تردَّد الرجل لحظة ، فهتف به (عادل) فى حِدَّة :

ــ ولكن ماذا ؟

أجابه الرجل :

ــ يقول رجالنا ، الذين يراقبون قصر (رولان) ، إن أضواء الحديقة قد سطعت فجأة ، منذ مايقرب من نصف الساعة ، وأن معركة سريعة قد دارت داخلها ، ثم هدأ كل شىء تمامًا .

هتف (عادل) فى جَزَع :

ــ أتعْنِى أنهم قد كشفوا أمر (سليمان) ؟

غمغم الرجل :

ــ أو (عصام) .

أضاف (عادل) فى قلق :

ــ أو كشفوا أمرهما معًا .

وصمت لحظات مفكِّرًا ، ثم قال فى حزم :

ــ اسمع .. من الواضح أن الأمور تجرى فى سرعة بالغة هذه المرَّة ، وينبغى لنا أن نُواكب السرعة ، أو نخسر المعركة .

سأله الرجل فى حماس :

ــ بِمَ تأمر ؟

أجابه (عادل) فى حزم :

ــ سنراقب كل الأماكن ، التى ترتبط بـ (رولان روچيه) ، أو بـ (الموساد) عامةً ، وستركِّز جهودنا حول البحث عن (عصام) ، وعندما نجده ، سنكثِّف مراقبتنا له .

تردَّد الرجل لحظة ، ثم غمغم :

ــ وماذا لو لم نجده ؟

صمت (عادل) ، وارتسم الحزن على ملامحه ، وهو يقول :

ــ فى هذه الحالة نكون قد فقدناه .. فقدناه إلى الأبد ..

* * *

أيقظ رجال (رولان) (عصام) فى الرابعة والنصف تمامًا ، فنهض من فراشه مترنّحًا ، وأسرع يحلق ذقنه ، ويستحم ، ثم هبط إلى بهو القصر ، فى تمام الخامسة ، حيث وجد (رولان) فى انتظاره ، متأنقًا ، مبتسمًا ، وهو يقول فى هدوء :

ــ صباح الخير يا مسيو (عصام) .. هل نبدأ رحلتنا ؟

ابتسم (عصام) فى هدوء ، وهو يقول :

ــ هيَّا بنا .

قاده (رولان) إلى ذلك المصعد ، الذى يشبه حجرة صغيرة ، حيث هبطا معًا إلى قاعة التدريبات ، وهناك فتح (رولان) بابًا سرِّيًا ، وهو يشير إلى سيارة حديثة ، تستقر داخله ، قائلًا :

ــ هذا هو الطريق إلى الفندق .

دلف الاثنان إلى السيارة ، وقادها (رولان) عَبْرَ ممر طويل ، انتهى بهما فى قاعة أخرى واسعة ، تقود إلى حجرة مصعد صغيرة ، حملتهما إلى الفندق ..

إلى تلك الحجرة ، التى اعتاد (ريمون) مقابلة (رولان) بها ..

وابتسم (رولان) فى هدوء ، وهو يقول :

ــ السيارة تنتظرك يا مسيو (عصام) .

ابتسم (عصام) بِدَوْرِهِ ، وهو يقول :

ــ هيَّا بنا إذن .

هبطا إلى حيث تنتظر السيارة ، وأشار (رولان) إلى (عصام) بركوبها ، إلى جوار السائق ، ومال نحوه ، قائلًا فى هدوء :

ــ هنا تنتهى مهمَّتى ، وتبدأ مهمَّة (ريمون) .. ستجده فى انتظارك فى المطار ، حاملًا جوازى سفركما ، وكل الأوراق اللازمة .

عقد (عصام) حاجبيه ، وهو يقول فى توتُّر :

ــ ألَمْ تقُل إننى لن أسافر بجواز سفر مصرى ؟

أجابه (رولان) فى سُخرية :

ــ ومن قال إنك ستفعل ؟.. إنه جواز سفر إسرائيلى ، يحمل صورتك ، واسمك الجديد .. (موشى بن صهيون) .

تطلَّع إليه (عصام) فى بُرود ، وغمغم :

ــ إلى اللقاء .. لو أننا سنلتقِى ثانيةً .

ابتسم (رولان) ابتسامة غامضة ، وقال وهو يعتدل :

ــ إلى اللّقاء يامسيو (موشى) .. إلى اللّقاء ..

وانطلقت السيارة نحو مطار (أورلى) ..

★★★

استقبل (ريمون) (عصام) فى المطار ، بنفس الملامح الباردة ، والحاجبين الكثّين المنعقدين ، وهو يقول :

ــ اسمك منذ الآن (موشى بن صهيون) ، مواطن إسرائيلى .. ستسافر بهذا الاسم ، وتتعامل به ، طَوَال إقامتك هناك ، وسيكون هو اسمك الكودى ، من الآن فصاعدًا .

أجابه (عصام) فى روتينية :

ــ عُلِم .

لم يتبادلا كلمة إضافية ، حتى انتهت إجراءاتهما ، وصعدا إلى الطائرة واتخذا مقعديهما ..

هنا فقط غمغم (ريمون) :

ــ أتعشَّم أن تكون مستعدًّا للاختبارات !

سأله (عصام) فى هدوء :

ــ أيَّة اختبارات ؟

أجابه فى لهجة أقرب إلى الشماتة :

ــ اختبارات الثقة .

ابتسم (عصام) فى سُخرية ، وهو يقول :

ــ أمازلتم لاتثقون بى ياعزيزى (ريمون) ؟

أجابه (ريمون) فى خُشُونة :

ــ الزعماء هناك لايثقون بأحد ، مالَمْ يختبروه بأنفسهم .

تنهَّد (عصام) ، وقال :

ــ حسنًا .. أنا مستعد لكل الاختبارات .

ابتسم (ريمون) فى شماتة ، وهو يقول :

ــ أتعشَّم ذلك ، ففشلك فى الاختبارات ، سَيَعْنِى قتلك هناك .

سَرَت قُشَعْرِيرَة خافتة فى قلب (عصام) ، إلا أنه أجاب فى هدوء :

ــ فليكن .

أضاف (ريمون) فى حزم :

ـ وخاصةً ذلك الاختبار ، على جهاز كشف الكذب .

هبط قلب (عصام) بين قدميه ، عند هذه النقطة ، وخُيِّل إليه أن مصرعه قد بـاتَ وشيكًـا ، فانكـمش فى مقعـده ، واستسلم لمصيره ، والطائرة تنطلق به إلى الجحيم ..

إلى قلب (إسرائيل) ..

* * *

[انتهى الجزء الثانى ، ويليه الجزء الثالث]

(قضية قلب الجحيم)

روايات مصرية للجيب

مغامرات ٤×٢

صدر من هذه السلسلة

(١) قضية الصراف .
(٢) « قتيل الفندق .
(٣) « بائع الذهب .
(٤) « حادث المقطم .
(٥) « المهرب .
(٦) « لص السيارات .
(٧) « مزور النقود .
(٨) « الجاسوس السرى .
(٩) « تاجر المخدرات .
(١٠) « العقد المفقود .
(١١) « جامع الطوابع .
(١٢) « لاعب الكرة .
(١٣) « مصرع الحلاق .
(١٤) « الضابط المزيف .
(١٥) « الحريق الغامض .
(١٦) « جريمة المسرح .
(١٧) « قطار الرعب .
(١٨) « السجين الهارب .
(١٩) « رجل الساعة .
(٢٠) « لعبة الموت .
(٢١) قضية الطفل الثالث .
(٢٢) « شرطى المرور .
(٢٣) « الجريمة الوهمية .
(٢٤) « منتصف الليل .
(٢٥) « حرب المخابرات .
(٢٦) « العالم المفقود .
(٢٧) « القناع الملعون .
(٢٨) « أسلحة الدمار .
(٢٩) « قصر الجريمة .
(٣٠) « الحصان الأسود .
(٣١) « القاتل المحترف .
(٣٢) « الوصية الضائعة .
(٣٣) « الحارس الليلى .
(٣٤) « بحيرة الأسرار .
(٣٥) « كنز القلعة .
(٣٦) « شبح الضحية .
(٣٧) « الغواصة المحترقة .
(٣٨) « أخطر العملاء .
(٣٩) « لعبة الثعالب .

مغامرات ٤ × ٤

سلسلة أشارت مولدة مثيرة للشباب تنشط العقل وتنمي الفكر والذكاء..

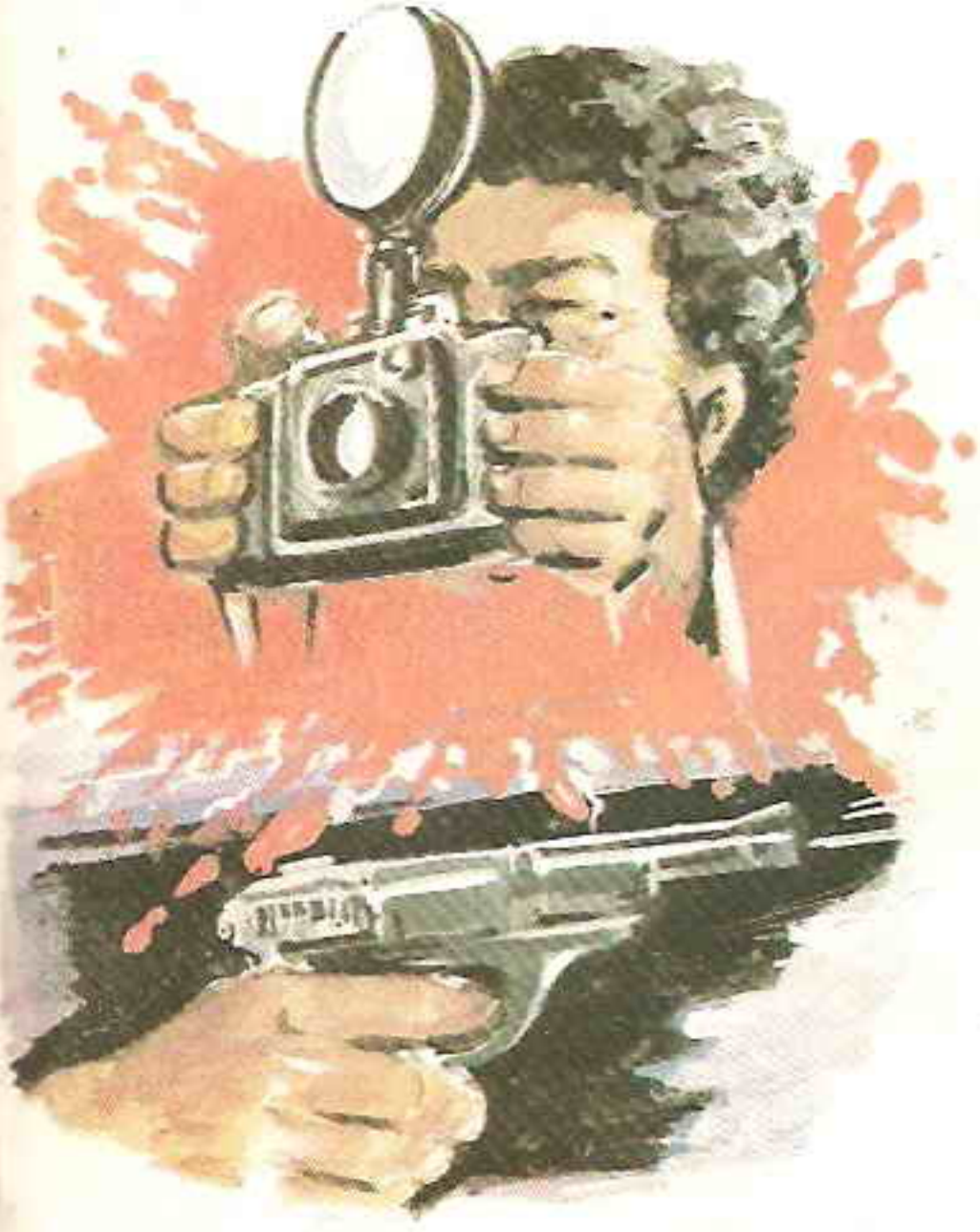

المؤلف

د. نبيل فاروق

قضية لعبة الثعالب

- ربح المصريون الجزء الأوّل من اللعبة ، وانتقلوا إلى الجزء الثانى ، حيث يرتفع الخطر ، ويصبح الموت ثمنًا لأدنى خطأ .. وأدنى فشل ..
- ترى .. كيف يواجه (عصام) هذا الخطر الجديد ، فى (لعبة الثعالب) ؟
- اقرإ التفاصيل المثيرة ، وقاتل مع (عادل) و (عصام) ، من أجل (مصر) .

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم

(قضية قلب الجحيم)

الثمن فى مصر ١٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم